الإسلامية والمذاهب الأدبية

دكتور
نجيب الكيلاني

مؤسسة الرسالة

١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع

مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٣١٩٠٣٩ - ٨١٥١١٢ - ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

« وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً
وغرتهم الحياة الدنيا .. »

« قرآن كريم »

« اليوم كانت أبواب الفردوس مفتوحة
لنا على مصارعها ، ولكن بسبب الملل
والتسويف قلنا غداً .. »

« بيدل »
الشاعر العجمي

« إن سَرَتْ في اللحون دعوةُ موت
حرّم الناي عندنا والربابُ » .

« اقبال »

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

في السنوات الأخيرة ، صدرت عدة مؤلفات إسلامية ، تناقش قضايا الفكر الاسلامي المختلفة ، وتحاول أن تربط بين الدين ونظم المجتمع الاقتصادية والسياسية والخلقية ، وتبين مدى تغلغل القيم الدينية في السلوك البشري ، والتطور الحضاري وأهمية الجانب الروحي في بناء الأفراد والمجتمعات

ومع ذلك فإن الفن الإسلامي عامة ، والأدب الإسلامي خاصة وتعريفهما في ظل العقيدة الدينية ، ودراساتهما على ضوئها ، لم يحظ بما هو أهل له من تمحيص ودراسة ، ولقد لفت نظري هذا النقص منذ سنوات ، وكنت دائم الحديث فيه مع اخوانا المهتمين بالدراسات الإسلامية ، وحاولت منذ عام ١٩٥٦ — وأنا أعد دراستي عن الشاعر الفيلسوف المسلم محمد اقبال ، أن أقدم — من خلال دراستي التطبيقية

لشعره وفلسفته ــ بعض الخطوط العريضة لمفهوم الفن والأدب عنـــده ..

ثم كان أن ألقى الأستاذ السلجوقي محاضرة في المؤتمـــر الاسلامي بالقاهرة عن أثر الاسلام في الفنون والعلوم. كشف فيها عن بعض الآثار الجديرة بالدراسة والاعتبار [1] ، وعندما صدرت الطبعة الاخيرة من كتاب الأستاذ سيد قطب عن النقد الأدبي ، وجدت فيها بعض إضافات أهمها محاولة لتعريف الأدب ــ أو الفن ــ الإسلامي ، وكان أبرز ما قاله هو ما أسماه « بالتصور الاسلامي » للكون والإنسان والطبيعة ، وأن الاديب المسلم هو الذي يعبر عن كل هذا تعبيراً فنياً (من خلال تصور إسلامي) ثم أخرج الاستاذ محمد قطب كتابه « منهج الفن الاسلامي » ، وسار فيه على نهج التعريف الذي وضعه شقيقه الاستاذ سيد قطب ، ولم يخرج عن الخط العام الذي رسمه ، وقد لاحظت في كتاب « منهج الفن الاسلامي » أن المؤلف لم يقم بعملية « مسح أدبي » يحصر فيها ما يسمى بالأدب الاسلامي في القديم أو الحديث ، سواء في عالم القصة أو المسرحية أو الشعر ، ومن جهة أخرى عندما أراد ان يقدم بعض النماذج للاستشهاد بها لم يجد سوى قليل من الادب العربي والاسلامي ، ومن ثم استشهد ببعض انتاج لطاغور والكاتب المسرحي الايرلندي (وهما ليسا مسلمين)

(١) انظر بعده .

وان اتفقنا في كثير من وجهات النظر مع المفهوم الذي حدده ، وكان في الإمكان ان يجد في أدبنا الحديث ما يعوضه عن ذلك، أضف ذلك إلى أنه لم يشر بكلمة إلى رجال لهم مكانتهم الأدبية والفكرية في أدبنا ، اذكر منهم على سبيل المثال الرافعي وبعض إنتاجه ، وشوقي وحافظ وشعرهما الإسلامي ، والأستاذ باكثير ورواياته وبعض مسرحياته ، والشاعر أحمد محرم وما أسماه بالملحمة الإسلامية ، وتوفيق الحكيم وبعض قصصه القصيرة وبعض مسرحياته . ولا شك أن كتاباً كبير الحجم ككتاب « منهج الفن الاسلامي » ما كان يجب أن يغفل هذا ، فضلاً عن ان الأستاذ محمد قطب لم يحاول ان يبسط أمامنا المذاهب الادبية الغربية ومفاهيمها حتى يقدم لنا دراسة مقارنة بين مفهوم الفن الاسلامي وبين هذه المذاهب ، والمقارنة لها دور كبير في تحديد قيمة ما ندعو إليه من فن إسلامي .. ونقطة أخرى هي أن الجانب الأكبر في الكتاب كان ديناً اكثر منه فنــاً ..

ومع ذلك فقد ملأ الكتاب فراغاً هائلاً في الدراسات الاسلامية وأدى خدمة جليلة للفن والدين على حد سواء .

* * *

ولا شك أن كتّاب الفكر الاسلامي مكلفون بأن يكتبوا في هذا الموضوع كثيراً ، ويولوه المزيد من الدراسة والبحث ، لان دور « الكلمة » في تحديد ايديولوجيتنا « دور بعيد المدى

عميق الأثر » ولهذا اعددت هذه الدراسة الموجزة إسهاماً مني في محاولة إلقاء الضوء على هذه المشكلة ، مقراً بأن هذه الدراسة الموجزة لم تستطع — هي الأخرى — ان تتلافى كل نواحي النقص فيما صدر من دراسات قليلة.

وقد يتساءل القارىء :

هل هناك أدب اسلامي حقيقي كامل نستطيع ان نستخلص منه القواعد لما تسميه بالإسلامية ؟؟

وللإجابة على هذا السؤال نقول : إذا لم يكن هناك هذا الأدب الإسلامي بصورته الكاملة فهناك الدين الاسلامي الذي نستلهم منه هذه القواعد والأصول.

حقاً ، إن بعض المذاهب الأدبية لم تتحدد مفاهيمها إلا في ضوء ودراسة نماذج سابقة لها كالكلاسيكية والرومانسية مثلاً ، لكن يجب ألا ننسى أن بعض المذاهب الأدبية لم تسبقها نماذج ، وإنما سبقها تحديد فلسفي وفكري ، ثم تلته النماذج الأدبية كما حدث في الوجودية التي ابتدأت كفلسفة واستمرت كأدب ، وكذلك الواقعية الاشتراكية التي ارتبطت بالفلسفة الاشتراكية او الماركسية التي سبقتها وهكذا ..

فليس خطأ إذن أن نحاول التخطيط للاسلامية (في الأدب) وان لم يكن لدينا النماذج الكاملة المحددة كل التحديد، ولسنا بدعاً في ذلك ، فضلاً عن أن لدينا من التراث الأدبي مالا ينفي قيام أدب إسلامي سابق لمرحلة التقنين والتقعيد ..

* * *

وقد يقول قائل : إن الادب الاسلامي لا ينمو إلا في تربة شعب مسلم ، والشعب المسلم لا يقيم بناءه إلا أفراد مسلمون ، هذا صحيح لحد ما ، لكن الأديب المسلم — الذي يستلهم مبادىء دينية ، ويعبر من خلال تصوراته الإسلامية — يستطيع ان يقدم فنه في أي مجتمع كان — مسلماً أو غير مسلم — ولا يعوقه عن الانطلاق في اداء رسالته كون مجتمعه متخلفاً في مفاهيمه الإسلامية ، لان دوره يرتبط بتطويره لهذا المجتمع وإنارة الطريق أمامه .

* * *

واذا كان الغربيون قد عرّفوا الأدب تارة بأنه « صياغة فنية لتجربة بشرية » ، وتارة اخرى بأنه « نقد حياة » ، وعرفه كتاب « منهج الفن الاسلامي » « بأنه تعبير فني عن الكون والإنسان والحياة والطبيعة من خلال تصورات اسلامية » فإننا بدورنا لا ننكر دور الصياغة الفنية ، والتجربة البشرية تاريخية كانت أو أسطورية ، فردية أو جماعية ، ولا ننكر ان الادب نقد وجبيرة للحياة ، ونلتزم أيضاً بالتصورات الإسلامية ، وبالنور الإلهي الذي يكشف الطريق الصحيح أمام أقلامنا وأفكارنا وسلوكنا العملي ، والذي يقودنا الى الحق والخير والجمال ..

ولقد تكلمنا عن علاقة الدين بالفن ، وعن الخصام الذي نشب بينهما ، وعن الحرية والالتزام في أدبنا الإسلامي ،

وموقف « الاختيار الوجودي » وموقف « الاختيار الاسلامي » والفرق بينهما ، وعن الإسلامية والأدب ، وقمنا بجولة مع الادب الاسلامي القديم ، والأدب الإسلامي الحديث ، وفي سطور قليلة لخصنا المذاهب الادبية ، لكي نتيح الفرصة للدراسة والمقارنة ..

وفي اعتقادي ان الموضوع في حاجة إلى مزيد من البسط والتدقيق ، فالى فرصة اخرى ، والله ولي التوفيق ...

نجيب الكيلاني

شرشابه – عربيه – اول اكتوبر ١٩٦٢

الدّين والفنّ

ان الدين كما نفهمه عقيدة شاملة لتنظيم الحياة وتفسيرها واستجابة لحاجات النفس البشرية ، ومشعل يضيء الطريق أمام الناس ويبلغ بهم غايات السعادة والاستقرار ، ووسيلة لتقويم العلاقات العامة والخاصة ، أو بمعنى آخر الدين مثل أعلى لا يتنافى مع واقع الحياة ، ولا يصادم نواميسها ، ومن ثم فإن الجمود ليس من طبيعته ، وتزييف المشاعر الإنسانية لا يصدر عنه في أية واقعة من وقائعه ..

والدين إنساني وعام في معناه ، الناس تحت سمائه سواسية كأسنان المشط ، لا يعرف تفرقة في الألوان ، ولا تمييز طبقة على طبقة ، أو إقليم على إقليم .

والدين دائماً يتغنى بالفضائل الإنسانية ويدعو إليها ، فالأخوة البشرية ركن وطيد من أركانه ، والعدالة معلم بارز من معالمه الشامخة ، والحرية سمة مشرقة من سماته السمحة ، والحب شذى حلو يعطر مبادئه ومقاييسه الخالدة ، والرحمة

صفة حميدة تخضد شوكة الأقوياء ، وتعضد قضية الضعفاء المغلوبين ، والدين صرخة إحتجاج في وجه كل طاغية ، يدعو إلى محاربة كل ظلم ، ويحطم كل انحراف ، والدين حرب على الاباحية والانحلال والاستهتار ، وسيف مصلت على رقاب الفجور وشتى ألوان الرذائل ..

والدين هو الفيصل بين الحاكم والمحكوم ، والدولة والدولة ،والإنسان وأخيه الإنسان ، وبين الانسان وربه ، والدين مقره ضمير الإنسان وعقله ، وليس سوط عذاب في ديوان من الدواوين ، وليس مجرد قواعد جامدة منبتة الصلة بكل ما حولهـا .

وفي القرآن الكريم صور حية نابضة بكل هذه المعاني وتعبير رائع عنها ، فرعون وهو يتحدى القوى الالهية ، ويستذل البشر ، ويقتل الأطفال ، ويستحي النساء ، ويسخر من معجزات الله ، قارون وهو يدل بماله على الناس ويريد أن يحقق بالمال كل ما حلمت به نفسه ، ونساءٌ خُنَّ الأنبياء ، ورجال انحرفوا عن الطريق ، وفي القرآن أيضاً احاديث طويلة عن النفس الإنسانية حين تعلو على السفاسف ، وحين تنحط إلى الحضيض ، وفي القرآن تصوير المعارك وصراعات رهيبة بين قوى الحياة المتناقضة ، ومشاكلها المتصارعة ، وباختصار فإن آيات القرآن عالم واسع شامل تجلجل فيـه أصوات عديدة .

فالدين ضوء كاشف ينير ولا يعشي العيون ، يظهر معميات

الحياة ويجلو حقائقها دون زيف او خداع ، فتبدو النماذج واضحة مقنعة ..

والفن ...

ما هو الفن ؟؟

سؤال في كلمات ثلاث ، أجاب عليه مئات بل آلاف المفكرين ، وأعطوا إجابات شتى متباينة .. لكنه في الحقيقة تعبير رائع ممتع عن النفس والحياة ، يتميز بالأصالة والصدق ، تعبير عن التجارب الانسانية في شكل « فني » متعارف عليه في أغلب الأحيان سواء أكان هذا الشكل قصة أو قصيدة أو مسرحية أو قطعة موسيقية .

واذا كان الفن عارياً من الصدق فقد تهدمت دعامة كبرى من دعائمه ، فتنهار كل مقوماته ، ويفقد أغلى قيمة يعتز بها أي فن من الفنون ، ويصبح تعبيراً زائفاً عن النفس والحياة ، وتزويراً لواقع عاشته ــ او تعيشه البشرية .

والفن بلا مضمون خواء وفراغ ، إن الأكواب الفارغة لا تروي ظمأ ، والثمرة العفنة لا تستسيغها النفس ، والعشوائية في أي شيء سذاجة وجنون ، فلا بد للفن إذن من مضمون ، ودعامة هذا المضمون أفكار وفلسفات مستمدة من واقع البشر الذي يتطابق حتماً مع واقعية الدين النظيف ، المبرأ من الشوائب وهوى المفكرين المنحرفين ..

ان مادة الفن هي الحياة والنفس الانسانية ، ومقوماته هي الصدق والأصالة الفنية والمضامين السليمة ..

ومادة الدين هي الحياة والنفس الإنسانية ، ومقومات الدين الصادق المنزل من عند الله هي الصدق والاصالة والمثل العليا التي تتوائم مع واقع الحياة وتتطور معها وتشبعها بالسعادة والحب والاخاء والعدالة والحرية ..

وغاية الفن الامتاع والافادة والتحريض على بناء مجتمع أفضل . وغاية الدين لا تخرج عن إسعاد البشرية واستمتاعها بحياتها ، وسيطرة المثل الفاضلة على علاقات البشر والدول والحكام ، والتهيء لعالم آخر .. عالم أفضل ، والتنفير من المظالم والانحرافات والعمل على هدمها ..

« خذوا زينتكم عند كل مسجد .. »

« والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينةً .. »

« وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيـــا .. »

« ان الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي .. »

« ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين ، فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً ، وقيل ادخلا النار مع الداخلين . وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ، ونجني من فرعون وعمله ، ونجني من القوم الظالمين ، ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها ، فنفخنا فيه من روحنا ، وصدّقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من

القانتين . »

« ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين . »

« يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى ، فيضلك عن سبيل الله .. »

« وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً .. »

« وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم .. »

« وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله .. »

« والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم .. »

« وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة .. »

« من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان .. »

« سيد الشهداء حمزة بن عبدالمطلب ، ورجل أتى إلى إمام ظالم فنهاه فقتله .. »

... الخ

عديد من الصور والمشاهد والأحداث الجسام ، وعديد من المبادىء والمثل الخالدة يتعرض لها القرآن في آياته ، تارة يدعو الناس إلى التزين والاستمتاع بخيرات الحياة دونما إسراف أو جشع ، وتارة أخرى يرغبهم في الإحسان والعدل ، ولا يفتأ يذم الخيانة والخائنين ، ثم يعطي للحياة قيمتها وفاعليتها وأنها ليست عبثاً ولا باطلاً ، وينفر من الظلم والاحتكار

والاستغلال ، ويدعو إلى العدل والتصدق والسلام ، وبناء مجتمع نظيف ، خال من الغش والنفاق والاستعباد .. الحياة كلها بألوانها الزاهية والقاتمة ، الحياة بابتساماتها وعبوسها ، والنفس الإنسانية بضعفها وقوتها ، بخطراتها الخفية ، وتعبيراتها الظاهرة .. كل ذلك تنبض به آيات القرآن في صدق وروعة وواقعيــــة ..

والفن — الصحيح — في أعلى مراتبه ، وأمثل غاياته لا يطمع في أكثر من هذا ، وقد استطاع الفن — خلال فترات كثيرة من التاريخ — أن يقارب هذا الاتجاه فأمكنه أن يحدث هزات عنيفة ، وتغيرات جذرية في مظاهر الحياة ، وأن يحدث ثورات هائلة في أعماق النفس البشرية أيضاً ..

والدين دائماً وسيلة نظيفة لغاية نبيلة ..

والفن الصحيح — هو الآخر — وسيلة نظيفة لغاية نبيلة ..

لحمتهما الصدق والأصالة والوعي والإثارة المجدية .

والتحريض من أجل إقامة عالم أفضل ..

وهكذا يلتقي الفن بالدين ..

وقصة التقاء الفن بالدين قصة قديمة ضاربة في أعماق التاريـــخ ..

قبل الأديان السماوية كان الناس يؤدون صلواتهم وهم « يرقصون » في ساحات المعابد ، وحول النصب والهياكل أو كانوا يترنمون « بالأغنيات » تقرباً للإله الممجد ، ولدى الكهوف والتلول والنيران المقدسة كانوا يدقون الطبول ،

ويعزفون « الموسيقى » ، ضارعين إلى بارىء السماء والأرض ، وعند قدماء المصريين ، كانت العبادة ألواناً من الفنون الرفيعة إلى جانب النصوص التي كانت تتلى ، ففي المعابد المنبثة في ارجاء مصر ، وفي القبور العديدة ، « رسوم وصور » ذات ألوان معجزة ، وكتابات تسيل تضرعاً وتوسلاً بالله رب العالمين ..

وفي اوروبا القديمة والحديثة أروع لوحات الفنانين العالميين في أسقف الكنائس ، وعلى حوائطها ، وكانت لوحات ميخائيل انجلو أعجوبة من الأعاجيب ..

أما الأساطير الاغريقية القديمة ، فقد نسجت في ملاحم ومسرحيات أبطالها من الآلهة العديدين الذين تنوعت أسماؤهم واختصاصاتهم .. إله الخير وإله الحرب وإله الجمال والشعر والموسيقى .. وو .. إلخ وللمسرح الديني خاصة والفنون الدينية عامة مكانة ممتازة في التاريخ الفني للبشرية .

ان الفنون القديمة لم ترتبط بالدين فحسب ، بل إن الدين قد شكل حياتهم كلها ، وصبغ تقاليدهم وتصرفاتهم ، وشكل مثلهم العليا حتى كان الدين هو الحياة .. الحياة تلك القنطرة التي تنقلهم الى عالم الخلود اللامتناهي ..

وكيف نعلل هذا الارتباط بين الفن والدين ؟؟

إن الدين فطرة نابعة من وجود البشر ، ضاربة بجذورها في نفوسهم ، وليست شيئاً دخيلاً أو مصطنعاً ارتبط بهم ارتباطاً زائفاً ، هنالك قوة جاذبة تشد المخلوق إلى الخالق ،

وتربطه به رباطاً وثيقاً لافكاك منه .. والإنسان ما هو إلا نبتة ربتها يد القدرة الإلهية ، فاذا تركتها ولم تمدها بالماء والغذاء والهواء والضوء ذبلت وماتت وأصبحت هشيماً تذروه الرياح .

هذه واحدة ..

والثانية هي ارتباط الدين ومثله ومبادئه بواقع حياتهم المعاصرة لهم ، وتداخله تداخلاً لا يمكن فصله ، فكان للدين سلطان القانون والتقاليد وإصدار الأحكام ، وقد استطاعت هذه الرحابة – في الدين – أن تفتح صدرها لانفعالات الفن واشراقاته الروحية ،وانطلاقاته البعيدة المدى ، لم يكن الدين – في ضوء هذا المعنى – قيداً يحد من الحرية والانطلاق ، وإنما كان ينبوعاً للمضامين الفكرية والفنية ، ومصدراً من مصادر إثرائها ونضوجها ..

ولم يستطع احد من المؤرخين – برغم تقادم العهد – أن يرمي تلك الفنون العريقة بالسذاجة وقصر النظر ، بل احتلت التراجيديات القديمة والملاحم والأساطير مكانة شامخة في عالم الفن والأدب ، هذا على الرغم من غرابة تصوراتها ، وتعدد الآلهة التي توهموها ، ورميهم بالنقائص البشرية حتى لكأن الإله في نظرهم مجرد إنسان خارق الصفات سواء أكانت هذه الصفات نابعة من الشرور أو الفضائل او السمات الجسدية او الروحية ..

ثالثاً .. استطاع الدين – قبل الفلسفة – أن يكوّن فكرة ما عن الحياة وأساليبها والمبادىء التي تسودها ، ومن ثم

كان طبيعياً أن يكون هو المورد الذي ترتشف منه العقول والعواطف وتصدر عنه في ثقة به واحترام لقداسته ..

وإذا كانت الفكرة واضحة المعالم ، تفوق غيرها في التفسير والإبانة استطاعت ان تحرز قصب السبق ، وتفرض سلطانها على كل شيء ..

واخيراً — وليس آخراً — كان التقاء الدين مع الفن ، نتيجة لاتفاقهما في الهدف ، وتقاربهما في الوسيلة ، مع اختلاف في الأشكال ، وتناغم في المضامين ..

خصام بين الفن والدين

ان الخصام الذي نشب بين الدين والفن خصام خارج على طبيعتهما السمحة ، وصدرهما الرحب ، ومهما قيل في مثل هذا الخصام فإنه لا يخرج عن كونه نتاج ظروف تاريخية قاسية ، وأخطاء فردية وجماعية تشابكت ملابساتها المختلفة .

ونشوب هذا الخصام أدى إلى معركة اعتدى فيها على كرامة كل من الطرفين ، فقد أتهم الفن بالمروق والجنوح الى التحلل والإباحية تحت ستار شعارات الحرية الزائفة ، وأتهم الدين بالجمود ومساندة القوى الرجعية ، وتقديس القديم بما فيه من غث وثمين .

وتولّد بينهما — ازاء ذلك — لون من الصراع الدامي الرهيب ، حينما ظن كل منهما أن في فناء الآخر حياة له ، وانتصار لمعنى الفكر ، وشموخاً بعزة الكلمة وقداستها ، وتخليصاً للتعبير من كل ما يشين .

وكتب « روسو » اعترافاته ، وكتب المؤرخون والمؤلفون

عن آباء وقساوسة غرقوا في مستنقعات الرذيلة ، وان تظاهروا بالبراءة والتقوى ، وسطروا الأحاديث الطوال عن « رجال الدين » الذين استغلوا واحتكروا وأثروا ، وكانوا عوناً على الفساد والمظالم[1] ، حتى كانت الحكمة الفرنسية المشهورة « اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس » .

ولم يكن بعيداً عن الاذهان في ذاك الوقت حركات الاضطهاد الفكري التي تزعمتها الكنيسة حينما حاكمت أصحاب النظريات الجديدة في كروية الأرض والجاذبية وغيرها ، فقتلتهم أو أحرقتهم أحياء أو زجت بهم في غياهب السجون ورمتهم بالهرطقة والخروج على كلمة الله ..

إن رجال الدين الذين اقتطعوا الإقطاعيات ، وتسنموا أعلى المراكز ، وصادروا الحريات ، وحاربوا حركات الإصلاح الديني والاجتماعي والسياسي بكل ما يملكون من قوة ، هؤلاء الرجال كان من الحتمي أن يحمل عليهم صاحب كل ضمير حي ، وكل فاهم لحقائق الدين ، مدرك لروحها ، متشبع برحيقها العذب النظيف ، وكل صاحب فكر متحرر يبحث عن كنه الاشياء ، ويغرق في التجارب واستخلاص النتائج الملموسة ..

وكما نأخذ على رجال الدين ضيق الأفق ، وقصر النظر ، ونزوات الجشع ، فإننا نلقي اللوم كذلك على الإغراق في

---

(١) كتابنا « الطريق الى اتحاد اسلامي » .

السخرية والتهجم على الدين ورجاله حتّى أصبحا مجموعة من المفاسد والنقائص أو سداً يقف في طريق النمو والتطور السياسي والاجتماعي والفكري . وما كان يصح بأي حال من الأحوال ان تلصق أخطاء ما يسمون « برجال الدين » بالدين نفسه ..

وفي خضم هذا الصراع الدامي نشأ لون جديد من الأدب ، لون يغرق في تصويره لبشاعة رجال الدين وتصرفاتهم ، ويفخر بالتحلل ، والانطلاق من إسار الدين ومثله وأخلاقياته ، ويعتبره صورة للتخلف والرجعية ، وانهياراً للمعاني الحضارية الجديدة ، وحرباً على حرية الخلق والإبداع الفني ، وقيداً يغل من تحليق الأفكار في سماوات الإشراق والتعبير المطلق ، وكتب هوجو في روايته « احدب نوتردام » عن القس الذي ينسى الله والترانيم والتبتل ويجري خلف فتاة غجرية فاتنة ، ويسلك كل السبل لنيلها ، وكتب غيره عشرات الاقاصيص والروايات والمسرحيات حتّى أصبح الرجل صاحب المسوح السوداء ، واللحية ، عنواناً للخسة والنذالة ، ورفيقاً للشيطان .

واذا كان الفكر الاسلامي قد بلغ — على طول حقب التاريخ — مركزاً مرموقاً ، فان فنون الادب — ما عدا الشعر والخطابة والنثر الفني — لم تتنوع فيه كما تنوعت في الغرب ، إذ لم يكن به آثار للمسرحيات على غرار الأدب اليوناني ،

ولم تنضج فيه الملاحم أو فن القصة. [1]

كان علماء المسلمين ومفكروهم أسعد حظاً من الغربيين، فقد كانت حركات التجديد في الفكر الإسلامي، وتجاوبه مع الفكر اليوناني والروماني والفارسي ذات صورة مشرفة، واستطاع الفكر الإسلامي أن يقيم بناء جباراً، وأن يغذي بروافده تيارات الفكر الأوروبي النامي، حيث نقلت فلسفات ابن رشد وابن سينا والفارابي وابن خلدون، كما احرز علماؤه — في الطبيعيات والكيمياء وعلوم التجارب والفنون الأخرى — قصب السبق وأثّروا في الفكر الأوروبي أيما تأثير..

ولا نستطيع أن ننفي بالطبع وجود بعض السدود التي أقامها بعض الجامدين من رجال الدين والحكام، فنكلوا بالأحرار، وحدّوا من حرية الفكر..

وحينما صحت شعوب المسلمين من ظلماتها وثباتها العميق، أخذت تنقل عن الغرب علومه المستحدثة وخاصة في الفنون — تلك التي كانت أسبق من العلوم — فكتبوا القصة الحديثة والشعر الحديث والمسرحية، وقلدوا عديداً من المذاهب الأدبية، وعديداً من أعلام الأدب هناك، والعجيب

---

(١) يرى الاستاذ فاروق خورشيد في كتابه «عصر التجميع» أن عناصر القصة قد اكتملت في الادب العربي، وضرب عديداً من النماذج، ونحن نؤيده في هذا الرأي الى حد بعيد.

في الأمر أن أدباءنا قد اقتفوا آثار كتاب أوروبا في تجاهلهم للعامل الديني الايجابي ، بل جعلوا الدين شيئاً والفن شيئاً آخر ، وفصلوا بينهما فصلاً تاماً ، حتى أبطال القصص الدينية أُعطيت لهم نفس السمات المعروفة في الأدب الأوروبي ، فيظهر رجال الدين في قصصنا في أغلب الأحيان رمزاً للبلاهة والسذاجة المفرطة ، ومثالاً للقذارة والشعوذة ، وأنموذجاً للسلبية المشينة ، فالشيخ «الشناوي» في رواية «الأرض»[1] فقيه ريفي يلقي تهمة الكفر جذافاً ، ويمالىء الحوتة والمستغلين ، ويفهم الدين فهماً ضيقاً سقيماً ، والشيخ الجنيدي في رواية «اللص والكلاب»[2] شارد عن العالم من حوله ، غارق في أوراده وأذكاره ، ومن حوله الصراع الاجتماعي العنيف والتغيرات الجذرية التي تهز المدينة هزاً شديداً ، وهو وسط هذا كله يتطوح يمنة ويسرة ، سابح في عالم صوفي لا يحترق بعذاب الناس من حوله .

وهكذا تجمدت قوالب «رجال الدين» في قصصنا العربي الحديث ، تلك القوالب المستعارة من أدب الغرب ، وأصبحت مثالاً مكرراً ممجوجاً يوحي بالنفور والازدراء . نحن لا ننكر تنوع النماذج البشرية المعبرة عن وجهة النظر الدينية ، ولا يستطيع أحد أن ينكرها ، إن كل طائفة من طوائف البشر فيها الصالح والطالح ، فيها المتمسك بأهداب

(١) تأليف عبد الرحمن الشرقاوي .
(٢) تأليف نجيب محفوظ .

الفضيلة والغارق في بؤرة الرذيلة ، فيها الشرير والخيّر ، لكن كتّابنا يركّزون الأضواء فقط على النماذج السيئة المنحرفة ، ويتجاهلون المثل النيرة المشرقة إما عن جهل أو جرياً وراء المفاهيم الأوروبية التي أعلنت الحرب على الكنيسة ورجالها ..

إن أوروبا لم يزل بها طائفة من كبار الكتاب يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويعتنقون القيم الروحية ويدافعون عنها في حرارة بالغة في قصصهم ومسرحياتهم بل وفي أفلامهم السينمائية ، بل ان الوجوديين ينقسمون إلى طائفتين ، الوجودية الملحدة والوجودية المؤمنة ، ولم تستطع الحملات العنيفة ، ولا طوفان المطبوعات الخارجة على الدين أن تطفىء شعلة الإيمان وإشعاعات الروح .

ولقد حاول جورجي زيدان أن يقدم التاريخ الإسلامي في سلسلة من الروايات ، وللأسف كانت ميتة الروح ، جافة الينابيع ، فظهر الخلفاء وأعلام الحرية والفكر الإسلامي نماذج سيئة التقديم . تفتقد عنصراً أصيلاً من عناصر وجودها بل جل وجودها ، إن كلمات الصدق والشجاعة والورع والإيمان والرحمة اذا جاءت بمفردها عارية من الإشراقات الروحية التي يشعها البناء الفني أصبحت مجرد كلمات مملة لا توحي بشيء .. ينتصر طارق بن زياد في ظروف قصة حب عجيبة .. وينتصر المسلمون في معركة لمجرد خيانة تافهة في صفوف الأعداء .. إنتصارات يؤدي إليها مغامرات حب ، أو حركات جاسوسية ، أو مؤامرات ساذجة ..

وتوفيق الحكيم في مسرحيته « السلطان الحائر » جعل القاضي – عزالدين بن عبدالسلام – في أول المسرحية مثالاً للمسلم الشجاع الذي يؤمن بالعدالة والقانون ، وينتصر لهما على القوة .. على السيف ، ويحمل روحه في كفه قرباناً لقضية يؤمن بها ، ويحرضه عليها دينه .. لكن الشيخ يتزعزع موقفه قبيل النهاية ، ويبدو مهلهلاً ملبلبل الفكر ، يحاول ببساطة أن ينتزع عن نفسه وضميره تلك القضية الكبرى التي آمن بها ، هذه الصورة المهزوزة للعالم المسلم – التي لا تتفق مع منطق التاريخ والواقع – صورة منفرة زائفة ، في مضمونها وفي نموها المسرحي ، ولا يعني هـذا أن الحكيم واحد من أولئك الساخرين من الدين ودعاته ، فان له نماذج ممتازة انتصر فيها لقضية الروح والإيمان (١)

* * *

ان قصة الخصام المفتعل بين الفن والدين ، هي معركة مريرة بين سيادة الدولار أو سيادة الضمير ، والدولار رمز للغرائز المنحرفة والاستغلال والأنانية والذاتية المنطوية على نفسها ، والضمير رمز لسيادة كلمة الله ، وسيطرة العقائد ، وقيام مجتمع متآخ متآزر تسوده العدالة والحب والعفة والورع

وقد بدا جلياً أن قصة الخصام المفتعل قد كُشف القناع عن وجهها ، وشرع عديد من الكتاب الملهمين أقلامهم

(١) انظر مجموعة قصصه « ارني الله » .

داعين إلى الحفاظ على كيان البشرية ، وإنقاذها من مخالب المادة المتسلطة ، وتجبر الآلة ، والدفاع عن القيم الروحية اليوم لا ينطلق حاراً ملتهباً من أنحاء الشرق الإسلامي وحده بل ان اوروبا ــ التي عبدت المادة ردحاً طويلاً من الزمن ــ قد تقدم الصفوف فيها كتّاب يصرخون بأعلى صوتهم في وجه التيارات المادية البحتة ، ويحذرون من سوء العاقبة ، وهول المصير ، ويحاولون ــ قدر طاقتهم ــ أن يسود منطق الإيمان ــ الضمير ــ وأن يتراجع الدولار وفعاليته إلى مكانه الطبيعي لينشيء ويعمر البناء المادي ، وأن يبقى الضمير وما يؤمن به من عقائد ومثل دينية رفيعة في مكان السيادة الروحية وتوجيه أخلاقيات البشر ، مؤكدين أن الخصام بين الفن والدين أو بين الدين والحياة حقيقة خصام مفتعل صنعته ظروف تعسة وأخطاء تاريخية مشينة ..

بين الحرية والالتزام

من البديهي أن أي نشاط إنساني يجب أن يقصد منه إسعاد الإنسان ، هذه قاعدة عامة ، سواء أكان هذا النشاط فردياً أو جماعياً ، لكن مفهوم السعادة قد يتغير من إنسان إلى إنسان آخر ، إن السعادة قد تكون بالنسبة لبعض الناس في الحصول على ثروة مالية طائلة ، وقد تكون في بلوغ مركز أدبي كبير ، وربما تقتصر على أن يعيش المرء في صحة جيدة . والبعض الآخر يرى أن أقصى السعادة هو إشباع غرائزه عن إي طريق ، وطائفة أخرى من البشر تعتبر اعتناق المثل العليا وانجاحها قمةً من السعادة عالية .

من هنا يتضح ان مفهوم السعادة قد يكون متسقاً مستقيماً ، وقد يبدو منحرفاً عقيماً ، او قد يتكون من عناصر متوازنة متكاملة ، وقد يكون مشوهاً أبتر يقتصر على جانب واحد من جوانب الحياة . والاسلام يربط سعادة الانسان الدنيوية بسعادته الأخروية ، ويقرن متعة الروح بمتعة الجسد ، ويضع

لكل لون من هذه الألوان صفات وسمات بارزة واضحة ، إنه لا يمنع من تكوين الثروات لكن عن الطريق الحلال ، ومن غير كنز أو احتكار أو جشع ، ودون أن يستغل في شراء الذمم ، واستذلال الرقاب ، والقضاء على القيم الفاضلة ، والإسلام لا يتجاهل الغرائز أو يغض من شأنها لكنه يدعو الى تهذيبها والى اشباعها عن طريق حلال مشروع ، والإسلام يرى أن المؤمن القوي خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف ، لكن القوة التي يوقرها الإسلام هي القوة التي لا تبطش ولا تتجبر أو تطغى ، والاسلام لا يكره للإنسان أن يبلغ أعلى المراتب لكن دون غرور او احتقار لبني البشر وعن طريق نظيف مشروع.

وهكذا نرى أن الإسلام لا يفرض على الفرد ان يغرق في التقشف ، أو يعيش في أعماق صومعة سوداء صامتة ، أو يزهد كل الزهد في بلوغ قمم النجاح ، وتحقيق أقصى ما يستطيع من الوجهة المادية والصحية والغريزية ولم يشترط سوى نظافة الوسيلة وشرف الغاية.

إن تلك الاشتراطات ليست قيوداً تعسفية متجبرة ، ولكنها صمامات أمن لدرء أخطار الأطماع والجشع التي تهدد أسس المجتمع ، وتقوض دعائم أمنه وسلامه.

والدين لم يأت إلا لاسعاد البشرية وخلق مجتمع منظم خال من الاحقاد ، بريء من هوس الأنانية ، وقانون الغابة ...

والآن نعود فنقول ان اي « نشاط » إنساني يجب أن يقصد

به إسعاد الإنسان ..

والأدب كلون من ألوان هذا « النشاط » يجب أن يلتزم نفس الخطة ، وأن يلعب دوره الخطير من أجل إسعاد الفرد والمجموع ، وهذا هو ما أقصده بأدب الالتزام ..

وبهذا الفهم المعقول يبدو لنا الالتزام وكأنه ليس نقيضاً للحرية وعدواً لها ، وإنما هو شيء منظم لها ، وصمام أمن يحرس انحرافاتها ، ويبرز لها معالم الطريق ، ويقودها إلى مشارف السعادة الحقيقية ، سعادة العقلاء المتزنين ، لا سعادة المجنون الذي تركوه في مصنع للزجاج على حد تعبير الشاعر الفيلسوف المسلم محمد إقبال ..

قد يسميه البعض أدباً ملتزماً ..

وقد يسميه الآخرون أدباً هادفاً ..

ونحن نسميه وجهة نظر إسلامية في الأدب .

فالمسلم محاسب على كل قول أو فعل مع عدم تجاهل « عامل النية » .. إن حامل القلم في ديننا سوف يسأل لماذا وفيم كتب وإلى اي غاية كان يهدف ؟؟؟

والذي يشرع سيفه مسؤول لم شرعه وفيم وإلى أي هدف يرمي ؟؟

والمتحدث بالكلمة ، والباحث عن الحقيقة ، والساهر في معمل تجاربه ، والقائم على تجارته ، والقائم بأي عمل من الأعمال .. كل أولاء مسؤولون عن نظافة الوسيلة ، وشرف المقصــد ..

من هنا كان الأديب المسلم ملتزماً بمنهج شامل في الحياة ، يعبر عنه بالقول والعمل ، ويتمثله في وحدته مع نفسه ، وفي اندماجه مع أفراد مجتمعه ..

وهذا المنهج الشامل ليس محصوراً في نظرية إقتصادية مغلقة ، ولا في مدرسة فلسفية مقفلة ، ولا يرتبط بأية بقعة على وجه البسيطة دون غيرها ، ولا بدولة ذات مذهب بعينه ، وإنما يتسم هذا المنهج بسمات إنسانية عالمية شاملة تتسع لبني البشر أجمعين ، وتمجد الفضائل البشرية من حب وأخـــوة وتعاون وشجاعة وعدالة ورحمة .

لقد حاولت بعض المذاهب الأدبية الحديثة ان تغير على هذه الفضائل وتطمس معالمها ، وتشوب نقاءها ، فزعمت انه ليس هنالك ما يسمى بالشجاعة مثلاً ، والشجاعة في حقيقتها كما يزعمون مجرد نزعة تهورية مغامرة لا تخلو من تردد أو خوف ، فالشجاع – حسبما يعتقدون – في حقيقة أمره جبان ، لكنه مغرور يرائي الناس ، ويحاول أن يظهر أمامهم بمظهر البطولة وهو في داخله يرتعد فرقاً ..

وفضيلة الكرم هي الأخرى يعتقدون أنها مجرد مباهاة وتظاهر وكسب لعواطف الناس ، وتكوين رهط من الأتباع – عبيد الإحسان – من حولهم ، أي أنه كرم ظاهري ينطوي في حقيقته على نفعية وشراء للعواطف والذمم والأتباع .. ثمن يدفعونه مقابل شيء كبير .. ليس كرماً مجرداً .. بهذه الطريقة استطاع أصحاب هذا المذهب – الواقعية السوداء – ان يضفوا

على الحياة لوناً من التشاؤم ، ونزعوا عن الفضائل الإنسانية — رداء القداسة والفاعلية الذي تتحلى به ، وبذروا في ضمائر قرائهم بذور الشر والشك .

إن أي انسان يكفر بالقيم والمثل الإنسانية الرفيعة من السهل ، أن يفعل أي شيء ، واذا كانت الفضائل مجرد وهم ، فان الأديان وهي معينها والداعي إليها ، ستكون هي الأخرى وهماً كبيراً ، وبهذا يعيش الإنسان لنفسه وبنفسه ، ولا يتورع عن ارتكاب أية جريمة ، أو اقتراف أي إثم مهما كانت بشاعته .

انه أدب التشاؤم ..

أدب موت الضمائر ..

أدب فقدان الثقة في كل ما هو رائع وجميل من قيم الحياة الخالدة ..

أدب فترة ابتلي العالم فيها بالحرب والاستعمار الحديث وانهيار الأمبراطوريات وتهاوي تيجان ، وقتل ملايين البشر في ساحات الحرب الرهيبة ، فانطلقت كلمات الألم والعذاب والضياع تضج في ارجاء العالم الحرب ، وتعلن غفوة الفضائل الانسانية ، وانهيار كل معاني التفاؤل والحب والسلام ..

ونحن — كمسلمين — لم ترتبط مناهجنا ومفاهيمنا بأحداث عالمية طارئة ، ولم تقيد نفسها بفترة ما من فترات التاريخ . مناهجنا ومفاهيمنا على مستوى واع يطفو على الاحداث الطارئة وينبو عن الفترات الشاذة القصيرة في التاريخ ، نحكم عليها ونعالجها في ضوء مبادئنا الخالدة التي تتمشى مع منطق الحياة

المتدة في الماضي والحاضر والمستقبل حتى اذا ما اصابتنا رجفة ، او دهمتنا خطوب عارمة لم تنسنا النظرة العاقلة ، والمنهج الشامل الإنساني ، لأن نوبات الضعف والانحراف طارئة لا خلود لها ..

من حفاظنا على قيمنا ومثلنا العايا ينبثق أدبنا ..

وهو ليس أدب المرضى أو المتشائمين أو المنحرفين .

فأدبنا على هذا الأساس ، وفي ضوء ذلك المعنى ، ادب ملتزم أو هادف ..

أدب الاستمتاع

وهناك نوع من الأدب يكتب لمجرد التسلية البحتة ، مثل الحوادث المثيرة التي لا تخفي وراءها هدفاً بعينه سوى الإثارة والاستمتاع والتسلية [1] ، ومثل المواقف الحرجة التي تبعث على الضحك او الاستغراق فيه ، ومثل بعض السخريات والمواقف الملفتة للنظر ، يبدو هذا في بعض القصص البوليسية وفي الملهاة (المسرحيات الكوميدية) ، وكذلك كثير من الشعر الساخر الضاحك او الماجن .

فما موقف الأديب المسلم من هذا كله ؟؟

إن أمامنا الحكمة النبوية المشهورة « روِّحوا عن قلوبكم ساعة بعد ساعة ، إن القلوب إذا كلّت عميت .. »

(١) يقول أصحاب هذا المذهب ان الفن مجرد مهارة في احداث الجمال او استثارة اللذة الجمالية أو إرضاء الحس الاستطيقي لدى الانسان ، دون ان تكون ثمة منفعة خاصة ... سوى المتعة الجمالية نفسها . (مشكلة الفن – زكريا ابراهيم) .

الحياة ليست هزلاً صرفاً، ولا جداً صرفاً، وانما هي مزيج بين هذا وذاك، والتسلية والمزاح من حق كل إنسان أن يرتوي بهما. «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح ولا يقول الا حقاً.. »

فليكن هذا اللون من الأدب طرفاً من أطراف، وجزء من كل، فلا مانع أن يشمل أدبنا ألوان المأساة والملهاة، وأن يضحك ويبكي، وأن يكتب بعض أدبائنا ذوي الموهبة هذا اللون الفكه والمسلي من الأدب. لكن هناك بعض أمور يجب إدراكها..

لا مانع من الادب الساخر، لكننا نشترط في الادب الساخر العفة وعدم الافحاش في القول، نمزح ولا نقول الا حقاً، وليس هذا تزمتاً أو ضيق أفق منا، لأن الأدب الساخر في العالم لم ينل مكانته السامية على يد «برنارد شو» وإبسن وغيرهما إلا لأن سخرياتهم كانت تنصب على أوضاع فاسدة في المجتمع وتحمل حملة شعواء قاسية على القيم والتقاليد الزائفة، كانت سخرياتهم تعالج قضايا كبرى عالمية أو محلية، وكانت هذه السخريات تهز الجماهير هزاً عنيفاً، كانت تنتزع الإعجاب والضحكات، لكنها في نفس الوقت كانت تحرض على قلب الأوضاع المتعفنة، وتحطيم قلاع الجمود والرجعية والكبرياء الفارغة، وتحمل على النزوات الفاسدة التافهة، وتحاول أن تقيم المجتمع على أسس نظيفة واقعية.

سخرية تحمل في طياتها أخطر القضايا وأكبر الموضوعات

سخرية ظاهرها الابتسام والضحك وباطنها الألم والدموع والثـــورة .

ان السخرية العميقة المؤثرة هي التي نريد ، لأن منطق الحياة الحديثة ، وارتفاع مستوى الوعي الجماهيري وضع الأديب في موضع حرج ، إن وراء كلماته الساخرة معنى ، وهذا المعنى يجب أن يكون أكبر من السخرية نفسها ، لأن السخرية السطحية لا تروي ظمأ العقول المتفتحة الواعية في عالمنا الجديد .

هذه النظرة تقربنا جداً إلى مستوى الفهم الاسلامي للأدب وتجعل ثقتنا به أجل وأعظم ..

أما الأحداث المثيرة ــ مجرد الأحداث ــ التي لا تنطوي على مضامين فكرية معينة ، فهي في نظري لا تعدو عن كونها نزهة على شاطىء نهر ، او استمتاع بمنظر حوض من الزهور ، او تطلع الى السماء الزرقاء التي توشيها السحب البيضاء النظيفة ، كلها أشياء تروي النفس بأحاسيس جمالية مريحة قد لا يكون للمرء غنى عنها ، وإن لم تشبع العقول الجائعة إلى لون من ألوان المعرفـــة .

ولا يمكن ان نترك هذا الأمر على عواهنه ، إن الجندي الذي يحمل سلاحه استعداداً لمعركة حربية مقبلة اذا ما تناسى واجبه وظل يحملق في النهر والسماء والورد ساعة .. ثم ساعتين سوف يدهمه العدو وينتهي أمره ، لكن في الإمكان ان يستمتع بها للحظات ، ثم ينصرف إلى واجبه ، لهذا فإن إشاعة هذا

اللون من الادب والاستغراق فيه ، أو الانكباب عليـــه ، والاهتمام به دون سواه ضرب من البلاهة والعته ، وخروج على طبائع الأشياء .

لنختر له حيزاً يليق به في عالم الفنون والآداب ولنترك للألوان الأخرى مساحة كبرى تليق بعمق رسالتها، وعظم دورها في الحياة الصاخبة المليئة بشتى أنواع الصراعات .

أما أصحاب نظرية « الفن للفن » الذين يحكمون على الفنون من ظاهرها وأشكالها الفنية ، دون التقيد بمضامين معينة ، ويكتفون بأن يكون الإنتاج فناً فحسب ، أصحاب هذه النظرة يرفضون أخلاقية الفن ، ونحن لا نقرهم على زعمهم ، فقد أسلفنا أن نظرة ديننا الى الأدب تؤكد فاعليته وايجابيته ، وأن المسلم محاسب على كل قول أو فعل يصدر عنه ، لكننا في نفس الوقت نستطيع أن نذهب عن عقولهم مخاوفهم التي تدهمهم من جراء الأشكال الفنية ، فهم يعتقدون أن الالتزام قد يشوه الأشكال الفنية ، وبالتالي سيصبح الإنتاج شيئاً غير الفن ، ونحن معهم في أن الشكل الفني يجب أن يظل محافظاً عليه ، فلا فن بدون شكل معين ، المضمون وحده لا يقوم كعمل فني ، هذا مؤكد ، فقد يكتب أحدهم مسرحية ثرية المضمون ، قوية المعنى ، نبيلة الغاية ، لكنها مهلهلة البناء ، شائنة الحوار ، لا عمق في تصوير شخصياتها ، ولا حياة في حركتها المسرحية ، مثل هذه المسرحية لا تعد فناً على الإطلاق ، بل هي مجموعة من الخواطر والآراء او المبادىء قذفوا بها على قارعة الطريق ..

والاسلام لم يضع لنا أشكالاً فنيةمعينة ، ولم يربطنا ببناء فني خاص نسير على منواله ، لان القرآن ليس كتاباً في علـــم « الاستطيقا » — الجمال — وإنما ارتباطنا بالإسلام هو ارتباط بالمثل والمبادىء التي أنزلها الله ، وجعلها مصدراً نصدر عنه ، ونتمثل معانيه ، ثم نحاول — جادين — الحفاظ على الأشكال الفنية والمساهمة في إنمائها واكتمالها وتطويرها مثل غيرنا من ادباء العالم .

بهذا يمكننا ان ندع مذهب « الفن للفن » وقد كفلنا لأنفسنا في أدبنا الاسلامي كل الضمانات التي تجعل الفن فناً .

الألتزام في الادب العالمي

والآن لنلق نظرة خاطفة على الأدب العالمي ، باحثين عن بعض المدارس المختلفة التي تلتزم بمذهب فكري او فلسفي معين ، حتى نرى هل « التزامنا » في الأدب باتجاه منهجي إسلامي يشين تصرفاتنا ، أو يرمي فننا بالجمود والقيود والجهل أم لا ؟؟

يقول الروائي الامريكي « نورمان مالر » في مؤتمر الكتاب بأدنبره « إن الالتزام هو بمثابة طوق النجاة في خضم القيم المتصادمة في عالم اليوم صداماً أفضى إلى الفوضى » ثم فسر نورمان مالر الالتزام بأنه نوع من التعاقد او الارتباط بشيء خارج الذات ، وهذا الشيء هو الآخر او « الغير » أياً كان وبغض النظر عن أهميته « بهذا يمكننا ان ندين بالولاء لفكرة واحدة أو لحقيقة واحدة ، فمن خلال هذا الولاء وحده يمكننا ان نتعلم شيئاً .. ان نقترب من إمكانية الرؤيا الشاملة .. »

قد يستغرب البعض مثل هذا الكلام من كاتب امريكي

معاصر يعيش في بلد متحرر الى إقصى حدود التحرر فيما يتعلق بأفكاره وتقاليده وتصرفاته الشخصية لدرجة الإسراف والمجون البالغ .

لكن في الحقيقة لا غرابة في ذلك البتة ، إن الكاتب يجب ان يكون صاحب موقف واضح محدد ، وهذا الموقف يفرض عليه الإيمان بشيء إزاء قضايا وطنه الصغير وقضايا العالم الذي لا يمكن ان ينعزل عنه ، وإزاء المتناقضات الكبرى التي تهدد أمن الأفراد والجماعات ، مثل هذا الموقف يجب أن تدعمه مثل وقيم سليمة نظيفة ذات نزعة إيجابية مفيدة ، في خضم القيم المتصادمة في عالم اليوم صداماً افضى الى الفوضى على حد تعبير نورمان مالر .. ولن يستطيع إنسان اليوم — رغم ما حصل عليه من راحة مادية واكتشافات عامية — ان يحقق توازن النفس ، وأن يرسي دعائم الاستقرار الاجتماعي إلا إذا التزم بمنهج واضح ، وتشرب هذا المنهج في قصصه ومسرحياته ، وقصائده وشتى فنونه ، إنه موقف يرتبط بأمن الإنسان وسعادته .

وفي فرنسا يتحدثون عن « الموقف الوجودي الملتزم » الذي يحمل لواءه سارتر .. أب الوجودية الحديثة ..

وسارتر يؤمن بالإنسان كفرد ، ويقدس حريته إلى أبعد الحدود ، ويهبه كل ما يخطر على باله من آمال ورغبات يريد أن يحققها بشرط أن يتحمل الإنسان تبعة هذه الحرية ، ان يشعر بالمسؤولية إزاءها . للانسان أن يفكر ويختار ما يشاء

بشرط تحمل المسؤولية واعبائها ، ان سارتر فيلسوف أديب ، مشت آراؤه الفلسفية الوجودية مع تعبيره الأدبي في القصة والمسرحية والمقالة ، وأمكنه أن يعطي صورة قوية للأديب الملتزم في عصرنا الحديث ، ويدافع عن موقفه في قوة وضراوة . واستطاع الرجل أن يرفع صوته ضد نزوات زعماء بلده الاستعماريين ، ويناصر عديداً من القضايا الإنسانية ، ورغم اختلافنا في كثير من وجهات النظر التفصيلية — فيما يتعلق بالفلسفة الوجودية — مع سارتر إلا أننا لا نملك سوى الاحترام إزاء هذه المواقف التي ناصر فيها الحريات ودافع عنها دفاعاً مجيداً .. وقد حاول اديب فرنسي آخر أن يكون وجودياً ملتزماً ، وهو البير كامو ، لكنه في غمرة تعصبه الأعمى عندما سئل عن رأيه في قضية الجزائر قال : « لو خيرت بين العدالة وأمي لاخترت أمي » مثل هذا الالتزام المعوج لا يشرف حامل قلم ، ان منطق المثل العليا ومنطق العدالة والحرية يفرض على كل ذي ضمير أن يتناسى روابط الأرض واللغة ويذكر نبل العقيدة ، وقوة الشعور الإنساني الخالص ، ليس مجرد الالتزام فضيلة ، وإنما الالتزام بقضايا شريفة نبيلة والتضحية في سبيلها بالأم والولد والدم هو الالتزام الذي نريد .

لقد حرص الرسول صلى الله عليه وسلم منذ فجر الدعوة الإسلامية على تأكيد معنى سيادة العقيدة ورفعها فوق كل الروابط الأخرى ، كانت رابطة العقيدة أقوى وأغلى من رابطة الدم والوطن والجنس ، حتى كان الابن في صفوف المؤمنين

يحارب أباه في صفوف المشركين من أجل الدفاع عن الحب والخير والعدالة وتحرير الإنسان..

* * *

واضح أن تيار الادب الملتزم قد لقي نجاحاً وتأييداً كبيراً في أوروبا. ولم ينل الالتزام من قيمته الفنية او ينقص من انتشاره واستقباله استقبالاً حسناً..

وعندما بدأت حركة البعث الأدبي في الروسيا، وظهرت الى الوجود روائع تولستوي ودستوفسكي ومكسيم جوركي وتورجنيف، بدا أن هؤلاء العمالقة المفكرين لم يكتسبوا شهرتهم الأدبية بسبب التفوق الفني الشكلي فحسب، بل يضاف إليه تلك المضامين الفكرية المشرقة المؤثرة، وذلك الالتزام بوجهة نظر معينة.

كان المجتمع الروسي يرزح تحت أثقال الطغيان، يضنيه الفقر، وتحرقه العبودية، ويشقيه الظلم، ويحيطه الظلام والجمود والرجعية، ومن ثم كان موقف هؤلاء الأدباء الروس موقفاً نابعاً من حاجة جماهيرهم التي تتعذب وتكدح في أتون العذاب المرير، فرفع الكتاب أصواتهم الملحة ناقمين على الأوضاع السائدة، معبرين تعبيراً فنياً رائعاً عن مأساة عصرهم.. وعندما قامت الثورة الماركسية وحققت انتصارها الكبير، وأرست قواعد الحكم الشيوعي لم تنس ان تخطط للأدب، وان تضع له منهج السير، وتوجهه الوجهة التي تخدم قضاياها

ومشروعاتها ، وابتدعت ما أسمته «بالواقعية الاشتراكية» تلك التي تتحدث عن أحزان الشعب وآماله وصراعه الدائم من أجل حياة أفضل ، والحملة على كل ما هو متخلف رجعي يعادي مصلحة الشعب ، وحكومة البروليتاريا ، والمذهب الشيوعي ، ويرى الدكتور مندور[1] «أن أدبهم أدب هادف إلى تغلب عامل الخير والثقة بالإنسان وقدرته ، وان واقعيتهم (وهي غير الواقعية السوداء) وإن كانت تتخذ مضمونها من حياة عامة الشعب ومشاكله إلا أن روحها روح متفائلة تؤمن بايجابية الانسان وقدرته على ان يأتي بالخير وان يضحي في سبيله بكل شيء في غير يأس ولا تشاؤم ولا مرارة مسرفة.»

وقد وقع هذا المذهب في عدة أخطاء بشعة أضرت بقيمه الفنية ، وألحقت الخلل ايضاً بمضمونه..

انها اخطاء تتعلق بالنظرية الماركسية نفسها واعتمادها أساساً على أن المحرك الأول والأخير لحركات التاريخ ، والخالق لفلسفاته وأفكاره هو العامل الاقتصادي وحده.

وهي اخطاء تتعلق بالنظرة الظالمة لمن لا ينضوي تحت لواء طبقة البروليتاريا ، إن كل خارج على هذه الطبقة خائن وعدو لدود لجماهير الشعب ، حتى لكأن انتساب إنسان لطبقة دون غيرها يكفي ان ينظمه في صفوف الخونة وأعداء الشعب ، وكان أن امتلأت النفوس بأحقاد طبقية قاسية أدت إلى برك

(١) الأدب ومذاهبه ص ٩٦ – ٩٧.

الدم وإلى المظالم التي لا تحصى .

وهي أخطاء تتعلق بالدعوة المذهبية الصارخة التي اكتظ بها ادب ما بعد الثورة البلشفية ، والشعارات الطنانة التي تصرخ في قصصهم ومسرحياتهم وأشعارهم ، دون مواربة أو لباقة ، وكان هذا على حساب القيمة الفنية للأعمال الأدبية ، وكان من جراء ذلك أن كادت تموت بعض ألوان الادب الاخرى التي تعالج مشاكل الانسان الخاصة العاطفية والنفسية ..

وهي اخطاء تتعلق بضياع الحرية في ظل المذهب الضيق المحدود الذي يعتبر كل خروج عليه ، أو أي تصد بالنقد له خيانة ومروقاً وعصيانا .

وهي اخطاء تتعلق بالقيم الجديدة المنحرفة التي سادت المجتمع الجديد ، تلك القيم التي حطمت الرابطة الأسرية في بدء الثورة الروسية ، وسخرت من القيم الروحية ورمتها بالعفن والسلبية والتفاهة ، فجف في أدبهم معين الأشواق الروحية والصلات العائليـــة .

وهي اخطاء تتعلق بتحول الفرد من إنسان الى ترس في آلة يعمل ليأكل ومطالب بأن يجهد نفسه فوق الطاقة كي يحقق اقصى ما يستطيع من إنتاج دون النظر لاحتياجاته النفسية وآماله الذاتية الخارجة على نطاق العمل .

ان الاديب فرد في مجتمع .

كلاهما مرتبط بالآخر ارتباطاً طبيعياً ازلياً لا فكاك منه ، وبقاء الفرد والحفاظ عليه ، وحماية ذاته ، هو في نفس الوقت

صيانة لبناء المجتمع ، وإبقاء على كيانه ، فلا مجتمع بلا أفراد ..
والأديب في إنتاجه مرآة نفسه ..

وهو في الوقت نفسه مرآة مجتمعه ..

والتعبير عن النفس والمجتمع معاً أمر لازم ..

ومن ثم كانت الخطة الشيوعية في « الأدب الموجه » — وهي إقرب الى الصحة من أدب الالتزام بالنسبة لهؤلاء — خطة تنطوي على كثير من الفساد والخلل .

* * *

لقد تحدثنا عن الاتجاهات « الالتزامية » في الادب في امريكا وفرنسا والروسيا في ايجاز ، ولم نكن نقصد أن نؤيد مذهباً بعينه ، أو نغلب واحداً على آخر ، أو نختار لنا مذهباً منها ، فنحن نعرف الدوافع الكثيرة والظروف العصيبة التي كانت تصنع كل مذهب من المذاهب ، ففي ظل الحروب العالمية الطاحنة حيث يموت البشر في بساطة تعسة ، وتنهار المقاييس الانسانية الحضارية ، وتسحق القيم الرفيعة ، وسط هذا الركام البائس الضال نبتت اتجاهات أدبية — أو على الأصح — اتجاهات نفسية مريضة في الأدب والفكر ..

وفي بعض المجتمعات حيث التسابق لجمع الثروات بأسرع وسيلة ومن أي طريق ، وحيث تسود نزعة الأنانية المطلقة . وتستولي التفرقة العنصرية أو الطبقية على أذهان بعض الأفراد ، وحيث النعيم المادي والاكتشافات العلمية الحديثة .. في مثل

من حركة فكرية يجب أن يقود الى الحق ، وكل ما بين ايدينا من عملية سلوك يجب ان يكون هدفها وغايتها الخير ، كما أن كل ما يوجه أبصارنا واحساساتنا وعواطفنا يجب أن يتوجه إلى جميل .

« فالدين عندنا موسوعة تضم أبواب الإرادة والفكر والقول وفصول العمل والصنع والسلوك ، وكل هذه ينبغي أن تتوجه إلى غاية هي الحق أو الخير أو الجمال ، سواء أكانت تلك الإرادة والقول والعمل من الفرد أو من المجتمع .. فالمجتمع عند الإسلام مكلف بالمبادىء التي كلف بها الفرد ، وليست عند الإسلام للمجتمع سياسة خارجة عن المبادىء الخلقية للفرد .. » ولا يعنينا هنا أن يلتبس الحق ، او تصور الأباطيل الصارخة على أنها حق صراح ، ولا يعنينا أيضاً أن تشوه معاني الخير ، أو ينقلب الشر خيراً ، ولا يعنينا أن تختلط مقاييس الجمال بالقبح ، وتزيف الأقنعة التي تخفي وراءها الحقائق الصادقة ، فإن الإنسان السوي ، يستطيع بفطرته الصادقة أن يحكم على سمات الحق والخير والجمال ، وللمسلم الحق موازينه الصالحة ، وثقافته الواعية ، ومنطقه الأصيل ، وخطته الإيجابية في الحياة «كنتم خير أمّة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله .. » ولدى المسلم : الحلال بيّن والحرام بيّن ، وإن كان بينهما شبهات ، لا تخفى على العقل المؤمن المستنير الواعي .

والاسلام يعتقد بعدم جوهرية الشر ، فالخير والحق والجمال

هي مثل ثلاثة تمثل حقيقة قدسية موحدة ، والشر والباطل والقبح عبارة عن وضع الشيء في غير موضعه ، فالشر بالذات لا وجود له في قاموس الإسلام ، وأكبر شر عند الاسلام هو الشيطان ، ولكن ليس له حول ولا قوة اذا لم تتحد معه النفس الانسانية ، ولقد كان الشيطان يوماً معلماً في الملأ الأعلى . ولكنه عندما ترك المبادىء ، وشذ عن النواميس الخلقية صار شراً لأنه ترك موقعه الحقيقي ، كالنار تصبح شراً إذا تركت موقعها وسرت في أثاث البيت ، وتكون خيراً إذا هي بقيت في مكانها في الموقد ..

« .. وإذا كان هناك شيء يظهر شراً ، فليس لنا أن نقلعه أو نقوض بنيانه ، بل إن علينا أن نصلحه ، ونخرجه عن الظروف التي صيرته شراً ، ولذا فالشر عندنا لا يدفع بالشر وإنما بالخير ، قال تعالى : « ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتي هي أحسن ، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » [1] .

تفاؤل وبناء :

وهذه النظرة للحياة هي نظرة متفائلة بناءة ..

متفائلة لأنها لا تعتبر الشر عنصراً أصيلاً ضارب الجذور في أعماق الوجود ، وإنما هو مجرد أوضاع مقلوبة من السهل

---

(١) نفس المرجع السابق .

تصحيح انحرافها ، أو مجرد داء أمسك بتلابيب الأمن الاجتماعي والنفسي ، في الإمكان علاجه ووصف الدواء الناجع له ، ولم يقع الاسلام فيما وقعت فيه بعض المذاهب الأدبية «كالواقعية السوداء» التي آمنت بأن الشر هو الأصل في الحياة ، وأن العالم كله رذائل ونقائص وآثام أصيلة ، أما الفضائل وصور الحق والخير فهي وهم كاذب ، وأساطير مفضوحة نسجتها يد الوهم ، وأحلام السذج والبسطاء ، وكذلك الرومانسية التي تتغنى دائماً بالألم والعذاب والشقاء والحرمان ، وكأن الحياة ما هي إلا سجن أسود كئيب ، لا تستحق أن يكدح الإنسان فيها ، أو يأمل في ظلها الحزين القاسي .. وفي اعتقادي ان الوجودية هي الأخرى صورة ذكية مفلسفة بعمق – للرومانسية .. الوجودية رومانسية ذات رداء فلسفي واع مثير ..

الوجودية ترى ان الجحيم هم الآخرون . وان الفرد يشقى ويتعذب في خضم هذا الجحيم ، هذا الفصل القاطع بين الفرد والمجتمع ، بين انسان متقوقع وعالم متشابك المصالح ، متشارك العواطف ، جعل الوجودية في اقصى اليمين والشيوعية في أقصى اليسار ، وما دام الانسان الوجودي يرى الآخرين جحيماً ، فقد وقع بين الفرد والجحيم (المجتمع) لون من العداء الراسخ العنيف الاثر ..

وعندما جاء الاسلام ،، ووضع للمسلم مكاناً وسطاً بين الفردية والاشتراكية (الجماعية) – «وكذلك جعلناكم امة

وسطا » وهذا هو المقام الحقيقي للشخص الانساني ، فالانسان يفكر فرداً ويعمل مجتمعاً ، إنه له حقه ونصيبه ، ولكنه مع هذا جزء من المجتمع ، هو للمجتمع والمجتمع له ، لا تتصادم فرديته مع مجتمعه كما لا يتصادم مجتمعه مع فرديته يكمل شخصه كي يكمل المجتمع ، وبالتالي اذا كمل المجتمع ارتقى الفرد وسعد .. » [١]

قلنا ان نظرة الاسلام للحياة هي نظرة متفائلة بناءة، متفائلة لانها لا تعتبر الشر عنصراً أصيلاً ..

وبناءة لأنها لا تؤمن بنزعة الهدم الكلي لمجرد الهدم والانتقام، بل تؤمن بالعلاج والاصلاح ، والمحافظة على كل عنصر ، إن الوضع المقلوب يجب أن يصلح ، وبث معنى إمكانية الاصلاح في النفوس له من النفع والايجابية ما يقضي على كثير من نزعات السلبية والتهور واليأس ، وما دام الشر مرضاً فقد يكون من السهل القضاء على جرثومته .

الذاتية والموضوعية :

امعنت الرومانسية في تقوقعها ، وانطوائها على نفسها ، وتغنيها بالآلام الذاتية ، والأحزان الفردية، وآمالها الضائعة في خضم هذه الحياة الخائنة التي لا ترحم ولا تحقق مطلباً ، بل كان الأديب الرومانسي إذا انتصر في معركة او حقق كسباً بعينه يحلو له أن يصرف نفسه عن هذه الجوانب المشرقة

---

(١) نفس المرجع السابق .

ويحاول أن يبحث لنفسه عن جانب مكتئب حزين ليترنم بأساه ويسكب الدموع ، وحتى لا يفلت من إسار ما أسماه النقاد « بمرض العصر » . وكانت الكلاسيكية تتجه اتجاهاً موضوعياً ، ومن ثم اتخذت مادتها من التاريخ وكان أكثره على هيئة قصص ومسرحيات ، على العكس من الرومانسية التي انصب جل نشاطها على الشعر الغنائي وهو أنسب ما يكون لطبيعتها الذاتية المغرقة . لكن الاستاذ السلجوقي بعد أن أبان عن وسطية الاسلام واعتداله في شتى الشؤون قال : « ان المعرفة في الاسلام مجموعة من الموضوعية والذاتية »

إن الفنان الحق يرى العالم من خلال ذاته ..

وليس حقاً أيضاً ان ينكمش وينطوي على نفسه وتكون ذاته هي عالمه الذي لا شيء خلفه ولا أمامه ..

والفنان صاحب فكر وعقل وعاطفة ، وليس من المعقول ان تمر على ذهنه حادثة من الحوادث دون ان ينفعل بها او يبدي بشأنها رأياً .

الموضوعية البحتة قد تليق بحقل التجارب والعلوم الفلسفية والرياضيـــة .

والذاتية المجردة قد تليق بانسان مريض لا يرى خارج ذاته أي شيء مهما كانت ضخامته وإثارته ، ومهما كان ضجيجه وعجيجه ..

ومن ثم فإن الأديب السوي هو الذي يجمع بين الذاتية والموضوعية بين عالمه الخاص ـــ عالم الذات ـــ والعالم الخارجي

بأحداثه وموضوعاته ، إن الفنان قد يأخذ موضوعاً – أي موضوع – لكنه لا يقدمه لنا في حياد تام، بل يضفي عليه من ذاته وشفافيته وانفعالاته او بتعبير آخر يجعله فناً مؤثراً مثيراً ممتعاً محرضاً ، وفي اعتقادي أن الفن الأصيل تحيز .. أجل .. تحيز ، لأن الفنان كما قلنا يجب أن يكون ، ملتزماً بقضايا يؤمن بها ، وتستغرق فكره وذهنه ، ويتشكل بها سلوكه وتعبيره . « فالفنان الحقيقي هو الذي له علاقة بمثله العليا » و « الفنان ينظر دائماً إلى عالمه بالمقارنة مع مثاله » وقيمه ومبادئه.

الفن والطبيعة :

ان « الفن ليس تقليداً للطبيعة ، بل هو نقد للطبيعة وجبيرة للحياة » [1]

« وما كان الفن العظيم ليأخذ بمجامع قلوبنا ، لو لم نكن نلمح فيه نصراً خفياً على الكون » [2]

ويقول جوجان « ان الله قد اخذ قطعة من الطين بين يديه ، وخلق منها كل تلك الموجودات التي نعرفها ، والفنان بدوره إذا أراد أن يخلق عملاً (عظيماً) حقاً فلا ينبغي له أن يعمد إلى محاكاة الطبيعة ، بل لابد له من أن يستخدم ما في الطبيعة من عناصر لكي يخلق منها عنصراً جديداً » .

ان المحاكاة المطلقة للطبيعة قصور وعجز ، ومهما بلغ

---

(١) محاضرة الأستاذ السلجوقي .
(٢) مالرو – عن كتاب مشكلة الفن ص ٨٧ – ٨٨ .

المحاكي من القوة والبراعة فلن يستطيع أن يعطي الصورة الكاملة المقنعة ، والفن شيء آخر غير المحاكاة ، والفنان يجب أن يتناول مادة الطبيعة ويبث فيها روحه ، إن المسألة مسألة سيادة الإنسان على الطبيعة وسيطرته الكاملة عليها ، فالكون كله مسخر له ، يمده بمعاني الجمال المعنوي ، وبألوان القوى المادية ، وهي عامل من عوامل استقراره المادي والمعنوي ، فمثلاً أنا وأنت نرى أمواج البحر الثائرة ، فنقول انها هائجة مضطربة ، اما الشاعر الفيلسوف محمد اقبال ، فلا يكتفي بذلك الوصف بل يفلسفها ويقول إن ثورة الأمواج صدى لما يعتمل في نفسي من حركة وفوران ، وحرقة وتوقان إلى السير في طريق الحرية والقوة والكمال ، لأن « اقبالاً » يؤمن بأن على الفنان ان يسبغ ذاته على الطبيعة ، ويغرقها في روحه ، فيجعلها لا تبدي لنا الا وجه الحقيقة التي يؤمن بها ، ولا تظهر لنا إلا قوة المعاني التي يعتنقها ..

ولنستمع لإقبال وهو يتحدث عن الطبيعة ، ولنحاول أن نرى كيف طبق ما آمن به ازاء موقف الفنان من الكون والموجودات :

علـى كل غصن تبين أن النبـات مشوق لرحب الفضاء
فماقرّ في ظلمة الترب حبّ جنون النشوء به والنمـاء
فلا تبغ في فطرة ترك سعي فما ذاك معنى الرضا بالقضاء
لأهل النماء فضاء فسيحُ
وما ضاق ملك الإلـه فسيحوا

إقبال يرى أن عناصر النشوء والتطور كامنة في خلقنا وطباعنا فما علينا إلا أن نعرفها ، فنثيرها ثم نوجهها التوجيه المفروض لها ، وليست هذه طبيعة الإنسان وحده ، فالاغصان في نمو وسمو دائم نحو الفضاء ، والحبة المدفونة في ظلمة التربة فيها مثل تلك الطاقة التقدمية النزاعة إلى الصعود ..

« والاهرام والموميات الفرعونية المحنطة، ومراكب الشمس كلها نقد للحياة الفانية ومحاولة لجبرها بالخلود ، فهذا النقد للفناء والجبيرة للخلود ، فتحا طريق الخلود أمام صلاح الدين الأيوبي ومحمود الغزنوي ولكن بطريقة أخرى ..

« والفنان المسلم يعلم حق العلم أن الفن ليس تقليداً للطبيعة كما زعم أرسطو ولا هو تسلية ولهو محض كما زعمت طائفة أخرى من الكتاب ، بل إن الفن عند المسلم كما كان وقت ميلاده جبيرة للنشاط غير المطلوب في الغريزة الجنسية ، كما أنه لا يزال محافظاً على طبيعته الجبرانية ، وكابحاً لجموح الغرائز الدنيئة ، ويحول قواتها وشلالاتها الدافقة واندفاعاتها الطاغية إلى مسالك الخير ومطالع النور .. » [1]

وليس معنى ذلك أن التفكير الاسلامي يحارب الغرائز ويغض من شأنها . اذ أن لها أثراً ضخماً في تحريك سلوكنا وتيارات افكارنا ، وإنما نقصد أن نضع هذه الغرائز موضعها السليم ، ونهذبها ونتسامى بها في إبراز طاقاتنا الفكرية والفنية ،

(١) محاضرة الأستاذ السلجوقي .

وبعث الغيرة الدينية والوطنية ، وتجنيب أنفسنا الوقوع في حضيض العقد والكبت ..

وخلاصة القول إن الفنان هو حامل لواء الاصلاح وتجديد الحياة ، وإحداث التوازن الفكري والعاطفي في نفس الفرد والمجتمع ، وهو الرائد الذي يقودنا إلى عالم أكثر ملاءمة لآمالنا وأشواقنا ، واذا كانت الطبيعة ـ خارجية كانت أو داخلية ـ هي مادته الأصيلة ، فإن هذه الطبيعة يجب أن تكون خاضعة دائماً للنقد والتشكيل والظلال الموحية ، وألا تكون مجرد محاكاة جامدة محدودة الأفق ، وهكذا يتضح ان جمال الفن بالنسبة لنا هو « عبارة عن خلق وانتاج عالم يكون أقرب إلى المثالية بالنسبة لنا .. المثالية التي تتغنى بها مبادىء ديننا الحنيف في رحابة وعالمية مؤكدة .

الادب الاسلامي والجنس [١]

لا يستطيع أي مفكر أن ينكر دور الادب « المكشوف » في إفساد الأخلاق وانحرافات العواطف ، ان الوصف الدقيق للجرائم الجنسية وإحاطتها بجو من اللذة المجنونة ، والشهوات العارمة ، والإلحاح في ذلك إلحاحاً مسرفاً ، قد خرج بها عن دائرة الفن ، ولم يبق فيها غير الإثارة البشعة ، فجسمت

(٢) انظر مقالتنا عن « القصة والجنس » في مجلة الأفق الجديد (القدس) عدد ١٤ السنة الأولى وكتاب منهج الفن الإسلامي للأستاذ محمد قطب .

المشكلة تجسيماً مبالغاً فيه ، وأوقعت كثيراً من الأغرار في حمأة الخيالات الجنسية المؤرقة ، وفي حضيض الكبت المعقد وعطلت طاقات مادية وروحية كثيرة ، وقد ثبت بالاحصائيات الرسمية أن نسبة كبرى من قراء هذا اللون من الأدب هم الفتيان والفتيات في سن المراهقة ، كما أثبتت أيضاً أن قصص الجنس قد فاقت غيرها من القصص من حيث أرقام التوزيع ، وإقبال الناشرين على هذا اللون الفاضح الذي يدر عليهم الأرباح الطائلـــة ، قد ازداد بنسبة ملفتـــة للنظر . وقـــد تمادى كتاب الجنس في اسفافهم فتناولوا العلاقات الزوجية والعائلية بمزيد من الاستهتار حتى انهم يكتبون عن الخيانات الزوجية ، والعلاقات الغير شرعية ، واللقطاء وقضايا العشاق .. والخ . يكتبون عن ذلك وهم يشعرون القارىء بالتعاطف مع الذين يأثمون ، وقد لا يكون لإثمهم مبرر سوى مجرد إشباع الغريزة عن أي طريق .

ومع ذلك فإن هذه الموجة العارمة من الانحلال لم تنتصر تماماً بعد ، ان في اوروبا وأمريكا هيئات للرقابة تحارب هذا اللون من الخروج الاخلاقي كما حدث في قصة « لوليتا » الشهيرة وغيرها ، وروسيا تحارب هذا اللون بدورها . وتعتبره تهديداً مباشراً لحركة النمو والتطور الحضاري ، ومؤذياً لطاقات الشباب المنغمسين في حركة البناء الكبرى ، والمفكر الاسلامي لا يقر هذه البذاءة الخلقية او الدعارة الأدبية ، فالمسلم عف اللسان ، عف القلم ، عف اليد ، والمسلم يعلم

ان العين تزني واليد تزني ، فالمسألة ليست جريمة جنسية مباشرة وإنما هي أعمق من ذلك وأكبر .. قد يرى البعض ان وصف دقائق النزوة الجنسية قد يفيد من الوجهة العلمية والدراسات السيكولوجية ، لكنهم يتجاهلون ان كتاباً لعلم النفس يختلف تماماً عن قصة من حيث الطريقة والتأثير ، إن الكتابات العلمية لا تحرك غريزة الإنسان وان كانت تنمي من معارفه وتوسع من ثقافته ولا تحرض على ارتكاب إثم من الآثام ، أما القصة – مثلاً – بما فيها من ظلال موحية، وأسلوب ادبي شاعري مؤثر ، وإفراط عاطفي مثير ، وسلاسة وبساطة في التعبير ، وانطلاق من قيود المنهجية والتجريبية العلمية ، كل هذا يبطل تلك الدعوى الآثمة ، ويجعل من أدب الجنس – ادب الفراش والتخدير – جريمة في حق اخلاقياتنا . ثم هناك فرق كبير بين الحب والجنس .

الجنس غريزة ملتهبة ..

والحب عاطفة روحية رفافة ..

هذا مع تداخل عوامل السيكولوجية ..

والاسلام لا يحارب الحب ، ولا يقتل غريزة الجنس ، وإنما يريد لهذه الغريزة التنظيم والتهذيب والتسامي ، وقد بسط القرآن الكريم احدى هذه المشاكل العاطفية في سورة يوسف .

ان يوسف فتى رائع الجمال ، جذاب التقاطيع ، يلفت النظر بروعته الفائقة ، وفتنته الطاغية « ما هذا بشرا ، إن هذا الا ملك كريم » ، لكنه على جانب مثالي من الصلاح والورع ..

إنه نبي من أنبياء الله ، ويروي القرآن قصة امرأة العزيز التي جنّت بفتاها حباً ..

« وراودته التي هو في بيتها عن نفسه .. »

« ولقد همت به ، وهم بها .. لولا أن رأى برهان ربه .. »

« واستبقا الباب .. »

« وقدّت قميصه من دبر .. »

ثم تأتي الوقفة الدرامية العنيفة :

« وألفيا سيدها لدى الباب .. »

لكنها تتنبه للخطر الذي يتهددها من زوجها لو علم أنها تنوي خيانته ، وفي نفس الوقت تفكر في أن تطعن الفتى الصالح الذي أذل كبرياءها واحتقر نزواتها ، فماذا تعمل ؟؟ لقد قالت لزوجها :

« ما جزاء من أراد بأهلك سوءً إلا أن يُسجن أو عذاب ألـــيم .. »

وتمضي القصة وسعار الجنس لم يهدأ أوراه في قلبها ، وتتحدث نسوة المدينة بقصة امرأة العزيز العاشقة فتدعوهن إلى قصرها ، وتأمر يوسف بالخروج اليهن :

ـ « فلما رأينه اكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا ، إن هذا إلا ملك كريم .. »

فترد امرأة العزيز في شبه انتصار وإصرار :

ـ « الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه ... ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين .. »

ويخوض يوسف معمعان محنة قاسية رهيبة، يتعرض فيها لذل السجن وعذابه. لكنه سعيد بانتصار القيم الفاضلة في نفسه، سعيد بنجاته من حمأة الإثم التي اوشكت ان تقذف به إليها امرأة العزيز ثم ينتصر الحق، ويعترف النسوة بطهارة يوسف بعد سنين:

— «قلن حاش لله، ما علمنا عليه من سوء».

— «قالت امرأة العزيز: الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه. وإنه لمن الصادقين.. ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب، وأن الله لا يهدي كيد الخائنين. وما أبرىء نفسي، إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي، إن ربي غفور رحيم.»

وهكذا تصور لنا قصة يوسف مع امرأة العزيز، قصة الضعف البشري بكل ملابساته، وانحرافات النفس الانسانية ونزوعها الى الشر، ولم تكتف القصة بتصوير مواطن الضعف فينا نحن البشر، بل صورت جوانب القوة المشرقة والعفة والطهارة والانتصار على حيوان الغريزة الجامح، والصراع العنيد بين الفضيلة والرذيلة في أعماقنا..

انها قصة جنسية بكل مقومات القصة، لكن أي جنس وأية قصة!!. الظلال الموحية، موسيقى الألفاظ، المواقف الدرامية، عنصر التشويق والمتابعة، ثم الانتصار لفضائل الإنسان وقوة الروح في النهاية، حتى امرأة العزيز الخاطئة انتصرت فيها قوى الخير، وعادت الى رشدها، وطأطأت رأسها اجلالاً وتوقيراً لإنسان كبير وقف صامداً كالعلم في

مواجهة الثورة الغريزية الجارفة وانتصر ..

هذا هو النموذج الذي نريد أن يسير الأديب المسلم على نهجه ، فيسلم قلمه من البذاءة ، وينجو من وصمة الحيوانية والإثارة المدمرة ..

يجب ألا تخدعنا دعوى الصراحة الجنسية عن حقيقة المشكلة وعناصرها الدفينة المدمرة ..

إنها ليست صراحة .. بل وقاحة ..

وحاشا للقلم المسلم أن يكون وقحاً مكشوف العورة « والناظر والمنظور في النار » كما يقول الحديث النبوي الشريف ..

* * *

بقيت كلمة أخيرة ..

إن المجتمعات الغربية المتفسخة التي وجد أدب الجنس لديها قبولاً واستحساناً في كثير من الأحيان مجتمعات غريبة علينا ، لها ظروف خلقية ودينية تختلف عن ظروفنا ..

وأدباؤنا الذين يحاولون الجري وراء هذه البدع الغربية في الأدب العالمي ، إنما يزيفون واقعهم ، ويقلدون دون تفكير وروية ، شأنهم شأن بعض المجتمعات عندنا وهي تقلد أساليب الغرب في طعامه وشرابه وسلوكه .. إن نظام الأسرة المسلمة يختلف عن نظامه في الغرب أو في روسيا السوفيتية

وتقاليد الأسرة عندنا تخالف تقاليدهم ..

وشعائر الزواج والطلاق لا تلتقي مع شعائرهم .. ونظمهم السياسية والاقتصادية والفكرية والثقافية ليست على اتفاق تام مع نظمنا ..

ومن ثم فان أدب الجنس ـ أدب الفراش ـ بصورته الفاضحة لا يتفق مع الاسلامية التي نؤمن بها ..

بين المحلية والعالمية :

الاسلام بطبيعته يمقت كل الوان العصبيات «ليس منا من دعا الى عصبية» . فالعصبية المقيتة تعمي ، ومن ثم تؤدي الى فساد الأحكام وخطل التصرفات ، فتقلب الحق باطلاً ، وتجعل من الباطل حقاً . والناس في الأصل «أمة واحدة» ، ولكن الله جعلهم شعوباً وقبائل ليتعارفوا ولا أفضلية بين فرد وفرد ، وجنس وآخر ، ووطن ووطن إلا بالتقوى ، إلا باعتناق المثل العليا والقيم الرفيعة التي أنزلها الله لتحرس أمن الإنسان وتحمي سعادته ، وتحقق له الرخاء والاستقرار ..

ومع ذلك فالإسلام لا يؤمن بذوبان الفرد ذوباناً تاماً في مجتمعه فتنمحي شخصيته وتتلاشى إرادته وذاتيته ، بل الفرد لبنة مميزة في بناء كبير ، لبنة لها أحلامها وأشواقها الروحية ، ومطالبها المادية ، ومع هذا التفرد الأكيد فإن رباط الأخوة ، أخوة العقيدة ، تجعل من مجموع الأفراد وحدة واحدة متآزرة متماسكة تشرق عليها معاني الفضيلة والايثار والتضحية والحب فلا انعزال إذن أو أنانية وانما تأكيد لشخصية الفرد وشخصية

المجتمع ككائن متحرك متفاعل .يقول اقبال عن الفرد بين مجتمعه :

هو في المجتمع خال ومن الحشد طليق
مثل شمع الحفل في الحفل وحيد ورفيق
مثل شمس الصبح . فكر فيه نور وبريق
لفظه حر يسير لكن المعنى دقيق

ويقول :

إنما الكافر حيران له الآفاق تيه
وأرى المؤمن كوناً تاهت الأكوان فيه

وما ينطبق على الفرد وسط مجتمعه ، ينطبق أيضاً على الدولة وسط مجموعة دول العالم ، والدولة المسلمة لا تتعالى على غيرها من الدول بما وهبها الله من رقعة واسعة ، أو ملايين غفيرة من سكانها ، أو ثروات طائلة تجود بها أرضها ، أو جبروت يفزع القلوب ويرغمها على الركوع والاستسلام ، او جنسها السامي أحمر كان ، أم اصفر ، إن تميز الدولة المسلمة تميزاً يرتبط بكلمة الله ، بالمبادىء النظيفة التي تحملها وتقدمها للبشرية ، بإيجابية دعوتها التي تدعو إلى الحب والإخاء والعدالة ، فلا استغلال ولا استعمار ولا حروب تثيرها النعرات القومية أو المطامع الاستعمارية ، فارتبطت أفضليتها بعظم الرسالة التي تحملها «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله » فلم يكن عجباً أن تسلم هذه الدولة المسلمة أمورها وقيادتها ومقاليد

الفكر والفقه فيها — في كثير من الأحيان إلى رجال كانوا في أول الأمر رقيقاً ، أو غرباء عن أمة العرب « اسمعوا واطيعوا ولو أُمِّـر عليكم عبد حبشي رأسه زبيبة » .

هذه المشاعر الإنسانية السمحة ..

وهذه النظرة العميقة المبكرة ..

وهذه المبادىء العالمية الباهرة ..

هذه كلها هي التي جعلت من الاسلام « دولة فكرية » لا تعترف بالحدود القائمة بين الدول ولا بالحواجز المصطنعة التي تنهض كأسوار للعزلة ؛ بل أعطت الأولوية للرباط الروحي والفكري رغم تباين التضاريس والمواقع ، ورغم اختلاف اللهجات والألوان والمشارب والمناخ ..

ولست أبغي سوى الاسلام لي وطنا   الشام فيه ووادي النيل سيان
حتى إذا ذكر اسم الله في بلـــد   عددت أوطانه من لب أوطاني

هذه التصورات الإسلامية ؛ توسع من آفاق الأديب المسلم .. وهي في نفس الوقت توسع من مجالات نشاطــه وإلماماته .. وبالتالي تصبح مشاكل وطنه الصغير جزءً من مشاكل العالم — الوطن الأكبر — وتربط مصالحه بمصالحهم ، وتدفعه دفعاً الى الارتباط بقضايا العالم ومصيره ، وبالتبعية تتنوع مضامينه الفكرية وتتسع فتثري أدبه ، وتمده بالمزيد من العناصر ..

لهذا فإن الأديب المسلم — يهمه أول ما يهمه — أن تسود العالم ايديولوجيات صحيحة غير منحرفة ، لأنّ انحراف

المفاهيم يتبعه انحراف في السلوك والسياسة المحلية والدولية ، وينعكس أثره على الفرد وعلى المجموع .

والأديب المسلم يؤمن بقضية السلام العالمي ، « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » « ادخلوا في السلم كافة » ، يؤمن بهذه القضية لأن غايته الكبرى أن ينتصر الخير ، وتسود العدالة ، وتحقن الدماء ، ويرى أن مصرع النفس الانسانية أمراً مهولاً مرعباً ، ويعتبر قتلها أكبر بكثير من مجرد ازهاق روح ، « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » . ومع هذا فإن المنطق الإسلامي المتزن الواقعي لا يقر العدوان ، بل يطالب الناس بأن يهبّوا في وجهه ويوقفوه عند حده ، ويقلموا أظافره ، ويحدوا من أطماعه . ويعتبر النضال في مثل هذه المعارك جهاداً مقدساً شريفاً ، ويسمي الموت في ساحاته استشهاداً في سبيل الله ، يؤجر صاحبه أعظم الأجر ، وينال خير الثواب في الآخرة ، وطيب الذكر وحسن الأحدوثة في الدنيا ، والأديب المسلم يؤمن بحق الجميع في لقمة العيش ، وضمير المؤمن يعاف أن يحيى المتخمون في إسراف ، وأن يهلك المعدمون جوعاً ، والأديب المسلم يعيش في مجتمع ، مجتمع له مشاكله المادية والثقافية والسياسية ، ومن هذا المجتمع تنطلق الاحتياجات وارهاصات التطور والتقدم ومسايرة النمو الاجتماعي ، والأديب ازاء هذا يجب أن يعيش مشاكل مجتمعه ويستغرق فيها ، ويساهم مساهمة فعالة في

إبرازها والتحريض على معالجتها بقلم الفنان الصادق ، وفنان المجتمع المسلم أمامه مدى واسع . لا حد لآماله ولا سدود أمام أحلامه المنطلقة ، ومجال التسامي مفتوح أمامه إلى أعلى الآفاق «يا عبدي أطعني تكن ربانياً ، تقول للشيء كن فيكون » وهكذا تكون عدة الأديب المسلم في الصعود إلى الآفاق العليا .. في المحاولة الدائبة الملحة لكي يقترب من الحظيرة الإلهية باتصافه بصفات الله ، وتشبهه بالمثل العليا الخالـــدة .

وبدون « عالم المثال » لا يستحق أدبه صفة الخلود ..

وبدون الأحلام المنطلقة البناءة ، لا يكتشف عوالم المستقبل وسمات الغد المشرق الرائع .

وتسامي الأديب المسلم الى «عالم المثال » بأحلامه الإيجابية لا يعني هروباً من الأرض ، وانعزالاً عن صراع المجتمع ، إنه لا يتسامى بخياله الا ليفكر كيف يصنع سعادة الإنسان الجديد ، وكيف يفصل للعاري رداء ، ويقدم للجائع طعاماً ، وللمريض دواء ، وكيف ينشر النور والسعادة والخير في أرجاء الأرض التي يدب عليها ..

الاديب المسلم قدماه في الأرض ، وهامته تلامس الثريا ، وكأنه صلة معقودة بين الأرض والسماء ، بين عالم الواقع بآلامه ونقائصه ومشاكله ، وعالم المثال بشفافيته وفضائله وابداعـــه ..

او بعبارة اخرى نستطيع ان نسمي هذا واقعية مثالية ..

او اذا شئت ــ إسلامية ..

فنحن لا يهمنا « الأسماء » بقدر ما تهمنا الحقـــائق التي ترمز إليها ، والمعاني التي تنطوي عليها ..

لو لم يحلم « ابن فرناس » واضرابه باجتياز الآفاق والسير بين السحب ، لما كانت التجارب لصنع الطائرات ..

ولو لم يفكر الملهمون في الكواكب ، وهل بها حياة أم لا . وهل على وجه القمر زرع وضرع . لولا ذلك لما اكتشفت تلك الصواريخ التي تشق أجواز الفضاء باحثة عن السر القديم ..

ولولا « عالم المثال » لما تطور « الواقع » على حقب التاريخ في مدارج النمو والنضوج والازدهار ..

والأديب المسلم يلتزم بقضية الحرية ...

فللحاكم الحرية الكاملة في أن يعدل بين رعيته ، وليس له أدنى حرية في أن يظلم أو يطغى أو يستغل ..

وللفرد مطلق الحرية في أن يبني ويكدح ويتثقف ويكسب ، لكن ليس له الحق في أن يسرق قوت الآخرين ، أو يبذر أمواله بدداً ، أو يخدش كرامة الحياء والفضيلة ، أو يسخر المجتمع أو واحداً من أبنائه في تحقيق أطماع ذاتية ..

ولكل فرد الحق في أن يعبر عن رأيه بالطريقة التي حددها الله ، وان يوجه النصح لكل خارج على القيم والمواضعات العقيدية « الدين النصيحة » قلنا لمن يا رسول الله : قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم .. » وليس له الحق في أن يعتصم بالسلبية وينأى عن معمان الصراع الاجتماعي

« ونفسٍ وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها . »

وللإنسان الحق في أن يستمتع بحياته ونعمات الله والطيبات التي أخرج لعباده ، ولكن ليس له الحق في الإسراف والجشع والأنانية .. ومشكلة « الاختيار الوجودي » عند سارتر وأضرابه ، تعطي للإنسان الحق في أن يستجيب لنداثه الداخلي ولمشاعره الخاصة ، وعليه أن يختار ما شاء متحملاً أعباء المسؤولية . انفعالات الانسان وأفكاره الخاصة هي حجر الزاوية ، أما « الاختيار الاسلامي » فهو أكثر موضوعية وإيجابية ، لا سيطرة فيه لنزوات النفس وانفعالاتها الثائرة الجامحة ، وإنما القياس « قياس موضوعي » بحث مستمد من المبادىء الإلهية المحددة التي حررتها النصوص ، ووعاها الضمير الإنساني الصحيح ، إنها مسألة تفاعل وتجاوب شيء آت من خارج النفس ــ الدين ــ مع النفس .. مزيج من الذاتية والموضوعية ، وفي هذا لون من التعادل والاتساق النفسي تكون فرص الخطأ والتردي اقل بكثير منها في حالة « الاختيار الوجودي » .

إن سارتر كثيراً ما يصرح بأنه ليس فيلسوفاً ، والحقيقة أن فلسفته لا يمكن تعميمها وتحديدها ، لأن الموقف الوجودي ، او « الاختيار الوجودي » مسألة ذاتية بحتة ، ومن ثم فإن فلسفةهذا الاختيار تختلف من فرد إلى آخر ، أي أن الوجوديين مجموعة من الفلاسفة المختلفي المشارب ، ومن لم يستطع أن

يكون فيلسوفاً على هذه الصورة المتفسحة ، فلن يكون بالطبع وجودياً .. ويسوقنا هذا إلى الإقرار بأن الفلسفة الوجودية صناعة فئة من الخاصة، وليست على الصعيد الإنساني الواسع ، على العكس من موقف «الاختيار الاسلامي» المحدد الواضح المفهوم لدى الخاصة والعامة، والفرق بين «الاختيار الوجودي» «والاختيار الاسلامي» هو الفرق بين فلسفة مضطربة متعددة المفاهيم المتناقضة ، وبين دين واضح سلس ، يتسق في مبادئه ومفاهيمه مع مستوى العقول العادية .

* * *

بهذا نخلص إلى أن سمات المفهوم الاسلامي للأدب سمات إنسانية عالمية ترتبط بالنفس الممتزجة بموضوعات الوحي الالهي والمبادىء الدينية القويمة ، وأن هذا الشمول والعموم : يجعل الإسلامية أقرب إلى الكمال وأدعى إلى الاتباع أو الاعتناق .

إن عدم ارتباطها ببقعة من الأرض جعلها ملكاً للناس اجمعين .. وعدم تشبثها بالنفوس المريضة المنحرفة وهبها صفة التعميم والمواءمة لبني البشر كلهم ..

وهي في نفس الوقت لا تمانع من أن يحب الانسان موطنه ويخلص له . لكنها تقف في وجهه اذا تحول مجرد الحب الى عصبية عمياء تصادم المثل العليا ، والمبادىء الدينية المؤكدة ..

وهي أيضاً لا تعادي النفس الإنسانية ولا تحتقر نزواتها

وتحطم أشواقها وآمالها. ولكنها تعضدها وتأخذ بيدها إلى الطريق السوي، محاولة ان تهذب من حيوانيتها، وتشذب من غرائزها وتنظمها..

«ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا، فمنهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله، ذلك هو الفضل الكبير».

«وما أبرىء نفسي، إن النفس لأمارة بالسوء، إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم»..

«وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا..»

الألم والدموع :

رأينا كيف أن بعض المذاهب الأدبية كالرومانسية مثلاً استغرقت في استبطاناتها، وتشبثت بانطوائيتها، وآوت الى صومعة منعزلة تجتر فيها آلامها، وتذرف دموعها، حتى أحالت عالمها وأحلامها ومشاعرها إلى آلام ودموع «المرء طفل يهذبه الألم» وقال آخر «إني أحب جلال الألم البشري» وقال ثالث: «لا شيء يسمو بنا قدر ما تسمو الآلام». واستمع بعض الرومانسيين إلى نداء الطبيعة تدعوهم إلى صدرها الرحيم. فمنهم من خف إليها يلتمس في جمال زينتها سلوى عن آلامه، ومنهم من أخذته العزة بالإثم فقال: «لا، ما بي حاجة إليك، وما أنت لنا بأم، بل زوجة أب،

لكم أفنيت من أجيالنا ، يمرون وأنت باقية خالدة ، تحدثيننا بما نحن صائرون إليه من فناء » ثم ينصرف إلى أطلال الماضي يخصها بحبه ، ولم لا ؟ وما هي الا صورة لنفسه [1] ، ولقد غالى بعض الرومانسيين إن لم يكن أغلبهم فجعل من الألم غاية في حد ذاته حتى قالت شاعرة عربية في احدى قصائدها « يا هوانا يا ألم » .

وارتبطت بالألم عدة مشاعر نفسية قلقة كالحزن والحرمان والانطواء واليأس القاتل ، والتهوين من شأن الدنيا وعدم جدوى النضال والنصب فيها ، وما دامت نهايتها الفناء ، وطريقها عذاب وشقاء ، فهي وهم كامل لاتستحق كل هذا العنـــاء .

وهناك مذاهب اخرى «كالواقعية والاشتراكية » تتجاهل رنات اليأس وأعباء الألم الثقيلة ، وتتمسك بأهداب التفاؤل التام ، محاولة أن تعطي للحياة صورة — ولو زائفة — نابضة بالخير والثقة وانتصار الانسان على كل القوى التي تعترضه ..

وفي كلتا الحالين تطرف ، هناك تفريط ، وفي الثانية إفراط ، إن الحياة في حقيقتها لا تخلو من الدموع . وإن لم تكن دموع ألم فقد تكون دموع فرح ، وعنصر الألم عنصر أصيل في أعماق النفوس ، لو لم يتألم الخطاة لما خطوا نحو ساحة التوبة ، والغفران ، ولو لم يتألم المعذبون الذين تجلدهم سياط

---

(١) الأدب ومذاهبه — الدكتور محمد مندور ص ٦٠ .

الإرهاب والقهر ، لما تحركت القوى التحررية التي تهتف بحق الإنسان الحر في الحياة ، ولو لم يألم المرضى ، لما كان هناك داء ودواء .

« ان تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون »

« وان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس .. »

« ان العين لتدمع ، وان القلب ليحزن ، وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون . »

والله سبحانه وتعالى يجود بالثواب والعون على كل عين « بكت من خشية الله » عز وجل .

فالألم بلا شك شعور إنساني عميق ، مرتبط بضمير البشر وأحاسيسهم ، وتناسيه تناس لفطرة أزلية وصفة لاصقة بالنفس ، والأديب المسلم مطالب بتصوير أعماقه وتنوعاته وظروف انبعاثه . وهو سمة من سمات الرقة والشفافية ، هو عاطفة جياشة قد تتحول الى دموع سائلة ..

يقول شاعرنا المسلم محمد اقبال :

إن حباب خمرة الآلام لا يرقص إلا فوق أمواج الألم
والله في حكمته علّمنا إن انشراح الصدر قبله ألم

* * *

آلامنا إلى العلا أجنحة نعلو بها فوق مطارات النسور
الروح سر والحياة ظلمة وشعلة الآلام للأرواح نور

إن الأدب الاسلامي ليس أدب نحيب وبكاء وتعبد للألم ، لكنه تصوير لهذا الأسى النفسي ، وتصوير يرتبط بمعاني المعاناة والتطهر والثورة على أسباب العذاب والمعاناة ، نقطة تحريض وانطلاق الى آفاق الانشراح والابتسام والسعادة ، ليس الألم غاية في حد ذاته ، « فمرضى العصر » — على حد تعبير الرومانسية — هم وحدهم الذين يعبدونه ، كما أن الحياة ليست ابتسامة عريضة دائمة كما تتوهم الواقعية الاشتراكية ولكنها مزيج من الألم والراحة ، خليط من الترح والفرح ، جمع بين الابتسامات والدموع .

غلب على « رابعة البدوية » الحزن والبكاء حتى كان يرى موضع سجودها كهيئة الرشح من دموعها ، وسألتها صديقتها عن حزنها فقالت « **يا عبدة ، إن الحزن الدفين في نفسي ليس إلا مظهراً للحب العميق الذي يفيض به قلبي لربي .** »

وكانت تبتهل الى الله :

إني جعلتك في الفؤاد محدثي وأبحت جسمي من أراد جلوسي
فالجسم مني للجليس مؤانس وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي

إن الألم والدموع لدى المسلم انعكاس لمعنى الخير والثقة فيه ، وتعبير عن حاجته إلى التغير الدائب الإيجابي في طريق الخير والصلاح والهداية ، وأدبنا الاسلامي أرحب من ان يزيف واقع النفس الانسانية ، أو يغفل بعض انفعالاتها جموداً

وتخلفاً ، فالمسلم الحق عالم كبير عامر بكل ألوان المشاعر والعواطف والأفكار ، فعن رب العزة :

«ما وسعني أرضي ولا سمائي ، ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن»

إن الذين لا يألمون .. والذين لا يذرفون الدموع .. ليسوا مثلاً أعلى في الصلابة والشجاعة ولكنهم تماثيل جامدة من حجر ، قد جفت ينابيع الخوف والرجاء في ضمائرهم ، واتسمت تصرفاتهم بالبرود والجدب .

مشكلة اللغة

وهي مشكلة تتعلق بالشكل الفني أكثر مما تتعلق بمضامينه الفكرية ، وأخطر المشاكل التي تواجه اللغة العربية هي وجود ما يسمى بالفصحى والعامية ، ووجود من يتعصبون لهذه أو تلك ، وقد ارتفعت حرارة النقاش حول هذا الموضوع من سنوات ، عندما حاول دعاة «الفرعونية» أن يجعلوا العامية لغة الكتابة ، وحاول البعض الآخر أن يدعو الى كتابة العربية بالأحرف اللاتينية ، ولم تذهب هذه الدعوات سدى ، بل كان لها أثرها البعيد المدى إذ امتلأت المطبوعات القصصية والروائية الجديدة بحوار عامي ، فسارع بعض النقاد إلى تأييدها والوقوف وراءها معضدين ، ولم يقفوا عند هذا الحد ، بل هاجموا كتّاب الفصحى واتّهموهم بالتقعر والحذلقة والنبش في القواميس عن ألفاظ مهجورة في عصر تجب فيه السلاسة والسرعة واستعمال أبسط الألفاظ الدارجة للتعبير ، وطائفة أخرى من النقاد هاجمت هذه الموجة العامية واتّهمتها بافساد اللغة ، والجناية على الفن والادب ومحاولة قطع الصلة بين تراثنا اللغوي والفكري والتهوين من شأنه ، والعمل على خلق أدب محدود الآفاق ، إقليمي النزعة ..

والحقيقة التي لا شك فيها ان ازدواج اللغة لن يكون بأي حال من الأحوال في مصلحة فننا وأدبنا ، ونحن لا نجد — في

الغالب ـ دولة من دول العالم تكتب بعامية وفصحى ، وإن ظهر في بعض الدول قليل من الكلمات او التعبيرات العامية البسيطة ذات الدلالة .

ولا شك ان اللغة الفصحى هي لغة الفن والكتابة والعلم أيضاً ، لأنها لغة محددة الاصطلاحات والدلالات ، ولست اقصد بالفصحى لغة القواميس ذات الكلمات المهجورة التي عفى عليها الزمان ولم تعد مناسبة ، وإنما أقصد الفصحى المفهومة السلسة ، وفي اعتقادي أن الهوة الواسعة القائمة بين الفصحى والعامية سوف تضيق رويداً رويداً حتى تتوحد لهجتنا ، وتنمحي مشكلة الازدواج ، فان ازدياد نسبة التعليم ، وانتشار وسائل التثقيف والترفيه والصحف اليومية والأسبوعية ، والتحولات الاجتماعية والحضارية ، كل هذا أدى الى رفع مستوى العامية وتهذيبها وتطعيمها بكثير من الألفاظ الفصيحة ، وفي نفس الوقت أدى أيضاً الى تخليص الفصحى من الكلمات النابية المهجورة ، والاصطلاحات الصعبة المعقدة .

ولقد تراجع بعض دعاة العامية والمتحمسين لها ، وفتر نشاطهم بعد نشوء تيارات الوحدة والتجمع بين الدول العربية والإسلامية ، إن أديب القاهرة يكتب لأبناء دمشق وبغداد ونجد وصنعاء والجزائر وبيروت وطرابلس الغرب ومراكش وغيرها ، واللفظة العامية التي تقال في صعيد مصر قد لا يفهمها سكان الوجه البحري ، بل إن بعض الكلمات العامية الشائعة منذ مائة عام أصبحت لا وجود لها اليوم ، ونقطة

أخرى ان الذين يعرفون العربية في أندونيسيا وباكستان وأفغانستان مثلاً لا يعرفون الا الفصحى اذ انهم قد تعلموها في المدارس أو الأزهر كلغة ثانية بالاضافة الى لغة بلدهم..

ان الفصحى اجدر بأن تسود..

وأجدر بها أيضاً ان تنمو وتتطور وتتزود بجديد من الألفاظ والتعبيرات..

وأن تضيف الى ثروتها اللغوية كل ما تراه مناسباً من العامية أو اللغات الأخرى.

وشيء آخر هام.. ان الذين يكتبون العامية زاعمين انها لغة الشعب الحقيقي وانهم يكتبون للشعب. واهمون.. أجل واهمون، لأن الفلاح الأمي الذي يركب الحمار، أو يقود البقرة لا يحمل في يده رواية او مسرحية بالعامية ولا يطلب من أحد أن يقرأها له، وإن كان في غالب الأحيان يطلب ممن يعرفون القراءة والكتابة أن يسمعه بعض الأخبار في الصحف السيارة، والصحف تكتب بلغة فصحى تقريباً ولهذا فان دعوة المتحمسين للعامية دعوة باطلة.

ليس من المصلحة ان ننزل باللغة الى أسفل، بل العدالة والمنطق يقتضيان أن نرفع الشعب، ونبسط من تعقيدات اللغة فيلتقيان بلا هوة تفصلهما، وكبار الكتاب في مصر والعالم العربي لم يكتبوا الا بالفصحى، ووجدوا من جماهير القراء في كل عواصم العالم العربي والإسلامي القبول والرضى، أما غيرهم من كتاب العامية فلم يخرجوا عن بقعة صغيرة لا

يخرج اسمهم عنها سواء كان ذلك في حيز يحتلونه من صحيفة من الصحف أو مجلة من المجلات ، أو ناد من الأندية الادبية .

الاشكال الفنية :

قلنا إنه لا يمكن أن يسمى الفن فناً إذا خرج عن مواصفات الصورة الفنية مهما كان ثرى المضمون عامراً بالأفكار القوية ، فالصورة قبل المضمون هي التي تقرر أصالة العمل الفني [1] وانتسابه لأي من الأشكال الفنية المتعارف عليها كالقصة او المسرحية او القصيدة .. الخ

وفي الشكل الفني وأصوله مجال للنمو والإضافة والتجديد ، إن « تكنيك » المسرحية مثلاً قد ألمت به تغيرات كثيرة منذ فن الاغريق حتى يومنا هذا في أبطالها وحوارها ودور الموسيقى والغناء فيها وانواعها من كوميدي ودراما وميللودراما وترجيديا .. الخ ، ثم هناك مذهب الكلاسيكية الذي يؤمن بالوحدات الثلاث : الزمان والمكان والموضوع ، وهناك مذاهب أخرى خرجت على هذه الوحدات ، وفي الشعر تلونت الأشكال من ملاحم إلى مسرحيات شعرية إلى غنائيات وهكذا ، ان شكسبير وبرنارد شو وابسن وتشيكوف (في مسرحياته) ، وجماعة الساخطين في انجلترا ، وكتاب المسرح في أمريكا ، كل هؤلاء خرجوا بسمات جديدة غيرت من ملامح الأشكال المسرحية ..

---

(١) أنظر كتاب منهج الفن الإسلامي – محمد قطب .

وما حدث في المسرح حدث في القصة والرواية ، فقد تعددت الأشكال الروائيـــة عند تولستوي ودستوفيسكي وهيمنجواي وجويس وسارتر وايليا اهرنبرج ولورانس داريل مؤلف رباعية الاسكندرية . وبلزاك وغيرهم ، ...

ومع ذلك فإن هناك ارتباطاً وثيقاً بين الشكل والمضمون ، فقد يحدد الموضوع الشكل الأدبي الذي يخرج فيه ، إن جسم الإنسان قد يحدد بأبعاده المختلفة شكل الرداء الذي يناسبه ، ولهذا يرى الكثيرون من النقاد أنه لا يمكن فصل الشكل عن المضمون ، بل هما كل لا يتجزأ ، لأن العمل الفني وحدة ، وأية تجزئة لهما ما هي الا وضع الفن في انبوبة اختبار أو جهاز للتحاليل الكيمائية .

فاذا ما تكلمنا عن الأدب الاسلامي تكلمنا عن مضامينه الفكرية واتجاهاته الفلسفية ، وحاولنا جادين ألا نتعرض للأشكال إلا من زاوية فنية بحتة لا صلة لها بالمبادىء الدينية ، زاوية شخصية بحتة ، ومن ثم فإن أحكامنا على الشكل الفني لا تلزم العقيدة بتفسير أو ارتباط بوجهة نظر معينة .

فالأديب المسلم يختار الشكل الذي يروق له ، يختار الوعاء الذي يصب فيه فكره ووجدانه ومشاعره ، ويختار الاطار الذي يتواءم مع نتاج ريشته المبدعة ، ولا نترقب منه سوى صدى عمله الفني في النفس ، الى اية وجهة دفعها وأية مشاعر أثارها ؟..

مع الأدب الإسلامي القديم

أجمع مؤرخو الأدب على أن القرآن الكريم عندما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم كان بداية عهد أدبي جديد، لقد بدأ القرآن كشمس مشرقة تضاءلت إلى جوارها المشاعل الصغيرة، تلك المشاعل التي أوقدها شعراء العرب، وحكماؤها وفلاسفتهم ورواة القصص والأنباء وكتبة الرسائل، وأعلام الخطابة. وكان طبيعياً أن ينظر أدباء العصر إلى قمة القرآن العالية ودونها مراحل من الإعجاز الفني والروعة البيانية والفكرية..

لم يكن القرآن شعراً ذا قواف وأوزان، وإن كان فيه رحيق الشعر وجماله وجزالته، مع خلوه من التهويمات الطائرة، والسبحات النفسية الشاردة.

ولم يكن نثراً بمعنى النثر المتعارف عليه في ذلك الزمان، وان التزم دقة التعبير، وإيحاءات اللفظ البارعة، والمضمونات الفكرية التي يعجز عن الإتيان بها عقل البشر.

أو على حد تعبير الدكتور طه حسين، «لم يكن شعراً، ولم يكن نثراً ولكنه قرآن».. شيء قائم بذاته متميز في إعجازه فريد في تعبيره، لا مثيل له في نسقه وبلاغته، يتلاقى مع الروح والوجدان والعقل تلاقياً أصيلاً رائعاً..

ولحكمة يعلمها الله كان نزول القرآن على دفعات وكانت كبريات الأحداث تقترن بنزول الوحي ، ليلقي الأضواء على ما أشكل من الأمور ، وليأتي بالرأي القاطع ، والحجة البالغة ، كان نزوله استجابة للحدث البشري ، وفي هذا دليل قاطع على ارتباط الفكر الاسلامي بواقع الحياة وأحداثها ، وفيه أيضاً دعوة للكاتب الإسلامي ليعيش في أحداث حياته ويستجيب لها ، ويشارك فيها بالتعبير الفني ، ولم تكن هذه الأحداث البشرية في غالبها منوطة بعصرها ، أو مرتبطة بأشخاص معينين ، بل اكتسبت دلالات عامة ، بحيث اتخذت كقاعدة شاملة ممتدة عبر الزمن .

صفتان متلازمتان :

الارتباط بالتجربة البشرية الواقعة

وصفة العمومية والشمول ..

وبقيت للقرآن قيمته الفكرية والفنية وستبقى أبد الآبدين ..

ومن القرآن — او بسببه — نبتت علوم التفسير والبلاغة والنحو والفقه وغيرها ، لأن فهمه وتفسيره وتقييمه أوجد هذه الألوان من المعرفة ، فكان انتصاراً للتقدم الفني وميزاناً للأحكام النقدية وطرق التعبير والأداء .

وخلال الأيام والسنين ، عادت فنون الأدب الأخرى لترفع رأسها من جديد ، ولتقنع بوضعها الذي ترك القمة للقرآن وبقي متواضعاً باحثاً له عن قمم أخرى دون القمة الشاهقة الكبرى .

أباطيل :

وزعم بعض المؤرخين أن الأدب العربي أو الإسلامي كان في مجموعه متخلفاً إذا ما قورن بالآداب الاغريقية والرومانية ، وأن كثيراً من الألوان الفنية — غير الشعر — تنقصه ، مثل القصة والمسرحية والملاحم الشعرية ، وان مثل هذه الفنون التي تجاهلها أو لم يصل إلى اكتشافها الأدب العربي والإسلامي تقلل من شأنه وتحط من قدره . وبدا أن هذه الاتهامات لا تقبل الرد لأول وهلة ، فما أبسط أن يبحث المؤرخ عن فن المسرح فلا يجده ، وعن الملحمة بمفهومها الحقيقي فلا يكاد يعثر لها على أثر ، فإذا ما تبين له ذلك طأطأ رأسه في خجل ، وسلم بالاتهام الملقى في وجهه ، والكارثة الكبرى أن بعض المفكرين لا يربط هذا النقص الفني بظروف تاريخية أو عقيدية أو فنية وإنما يعزونه إلى قصور في التفكير العربي والإسلامي ، وجفاف في القريحة ، وضيق في الأفق .

لم يقل أحد من هؤلاء المؤرخين أنه رغم اختفاء هذه الألوان من الأدب العربي إلا أن الفكر العربي — ككل — حقق انتصارات كبيرة في حقول التجارب العلمية والفيزياء والكيمياء والرياضيات وأصول التشريع والفقه وغيرها ، إن الصور الحضارية في العادة لا تكون مظاهرها على صورة واحدة من التفوق ، قد تسمو الانتصارات المادية ، في الوقت الذي تنحط فيه القيم الروحية ، والعكس صحيح ، وقد تتخذ

الثورات الفكرية صيغة علمية أو فنية ، وما أكثر قصص الهزيمة التي انتابت بعض الشعوب التي ضعفت حربياً ولكنها في الوقت ذاته أمدت الغزاة بألوان من الثقافة والفكر — أي أنها احتلتهم عقلياً وإن احتلوها أرضاً وقهروها رجالاً .

لقد نبغ العرب في الشعر كفن ، ولا ضير عليهم إن لم يمارسوا شعر الملاحم ، وهو على حد تعبير الاستاذ السلجوقي « إن الإسلام قلب قائمة الفن رأساً على عقب ، ووضع فن البيان والشعر والأدب في مقدمته القائمة ، (ولم يجعل النحت والتصوير كذلك باعتبارهما أبسط وأقل تعقيداً وأقرب إلى البدائية) لأن بحر التفكير الزاخر ، ومحيط التأمل الفائر ، وبسيط القلب الذي لم يخلق الله عالماً أوسع منه ، لا يمكن أن تصاد حيتانها المارده الشاردة ، العارية من أي ملامس حسية ، وملابس عادية (يقصد فن النحت) ، إلا بشص القلم وشبكة « مايسطرون » . إلى أن يقول الأستاذ السلجوقي : فالرائد والقائد لشعبات الفن عند الاسلام هما من البيان وصناعة الشعر . ولا غرو فإن من البيان لسحرا ، وإن من الشعر لحكمة ، ولا شك في أن الشعر قبل الإسلام كان أجمل ما يكون وصفاً للطبيعة ، وتغزلاً بجمالها بل لقد كان أروع تمثيلاً للطبيعة من تمثال « فينوس » ولكن هذه الروعة الشعرية كانت في « عكاظ » ، حيث كانت « الهيولي » هي الجنس المتداول ، وكانت الصورة هي النقد الرائج ، وفي محفل كان سطح ما بعد الطبيعة دون سقف مظلة يجلس فيها الأعشى :

ألا هبّي بصحنك فاصبحينا   ولا تبقي خمور الأندرينا
مشعشعة كأن الحصى فيها   اذا ما الماء خالطها سخينا

إن هذا الشعر الرائع يشعر بالولع بالخمر وملازمة القدح، ويبالغ في وصف صفاء المدام ورقتها ولكن في غمرة من الغرائز ومهرجان من العواطف. ثم لنستمع الى الشاعر الإسلامي الصوفي الكبير عمر ابن الفارض، وهو يترنم في شعره قائلاً:

رق الزجاج ورقت الخمر   وتشابها فتشاكل الأمرُ
فكأنما خمر ولا قــدح   وكأنما قدح ولا خمرُ

نرى انه لم يقتصر في هذا الرباعي على وصف الخمرة الصافية وإعجابه بها، بل وصف الكأس بأروع من وصفه لها، وكذلك جمع في جرعة واحدة من الشعر المادة والمعنى، حتى جمع العالم الطبيعي وعالم ما بعد الطبيعة، كما جمع القانون الطبيعي والناموس الأدبي، والجسم والروح، وكل ذلك في أسلوب موجز سهل ممتع، تعجز عنه كتب الفلسفة، ودروس الفلاسفة، وبطريقة لا تحط بـ «ما وراء الطبيعة» ولا تنزل بها إلى سطح الطبيعة بل بالعكس ترتفع بها عن سطح الطبيعة، وتجعله مظهراً رائعاً لما وراء الطبيعة كما يعتقد سبينوزا، وفي هذا الرباعي غموض أوضح تفسيراً من كل تعبير، بأن للعالم الطبيعي مظاهر وتجليات من الحقيقة والجمال الحقيقي.

* * *

ونستطيع أن نقول أن الشعر العربي كان أنضج من أن

يحشر في صياغاته آلهة الشر والخير والنار والحرب والشعر والجمال ، وكان يأنف من روايات الأساطير الميثولوجية لمنافاتها لاعتقاداته ، وخروجها على مألوف تصوراته لله والقوى التي يرمز اليها بما وراء الطبيعة .

وزعموا ان اغلب الشعر العربي يضم مدائح كاذبة ، ترفع البشر من الحكام والقواد وزعماء القبائل والعشائر الى مصاف المثالية المغرقة ، فجودهم كالبحر أو الريح المرسلة ، وشجاعتهم فوق التصور ، وأخلاقهم لا مأخذ فيها ، ولا ضعف في بنائها ، وبيانهم معجز لاركاكة ولا إسفاف ، ووجوههم مشرقة كالشموس او البدور ومن هنا يرمون الشعر والشعراء بالنفاق والكذب الصراح ، والتزلف وإغفال جانب الجماهير في المطالبة بحياة أسعد وأرغد..

والحقيقة أننا نستطيع ألا نسمي هذا نفاقاً وتزييفاً للواقع ، وفي الإمكان القول بأن الشاعر في مدائحه يحاول ان يرسم صورة مثالية رائعة لما يجب أن يكون عليه الممدوح ، إن فضيلة الكرم اذا وضحت في الأذهان ، واتخذت أغنية أو قصيدة تترنم بها المحافل ، وارتبطت بشخصية من الشخصيات ، فإن إشاعة مثل هذه الفضيلة يؤدي الى ترسمها والنسج على منوالها ، فتسود فضيلة الكرم فعلاً .. والتغني بالعدالة والحرية والنبل ، وربط الممدوح بها ، يلفت النظر إليها ويجعلها بالممارسة والحديث الطويل عنها حقيقة كائنة . هذه واحدة . والثانية أن هذه المدائح قد يقابلها في ناحية أخرى ألوان من

الهجاء المقذع ، ولا ننكر أن الهجاء في بعض الأحيان كان نقداً حراً بناء ، يضج بالثورة والتحريض ، وفي بعض الأحايين الأخرى كان مجرد سب علني غير مستساغ ، لكن هذا لا ينفي إيجابيته وفاعليته ..

وخاض الشعر العربي معارك النضال الإسلامي منذ غزوة بدر حتى يومنا هذا ، وتغنى بأيام النضال الرائعة ضد الفرس والرومان . وضد غزوات الافرنج الصليبيين والتتار الغزاة ، ولم يقف مكتوف الأيدي أمام المعارك الداخلية في العالم الإسلامي . كان هناك أدب رائع للمعتزلة وللخوارج ، وأدب باك حزين وصف ما تعرض له العلويون ، وما قاسوه من طغيان طائفي ومذهبي ، كتبوا عن الحجاج وطغيانه ، وعن مقتل الحسين البشع ، ومأساته الخالدة ، وتغنى بفضائل الرجال الأطهار .. واتخذ من النفس الانسانية القلقة المتألمة مجالات له ..

وقصص الحب العذري العفيف ، وما يخالط هذه العاطفة السامية من مآزق ومآس وآلام ودموع وقيود اجتماعيـة ودينية ، تخصص في هذه الألوان طائفة من الشعراء الملهمين : اولئك الذين خلدوا هذه العاطفة الإنسانية العميقة الجذور في النفس الإنسانية .

ومن أجمل الشعر العربي شعر التصوف الذي يسيل رقة وعذوبة وشفافية ، ذلك الشعر الذي صور عالم الروح ، وعالم ما وراء الطبيعة بانفعالاته الغامضة في جمال الهائمة في روعة ، وناقش هذا الشعر قضايا الوجدان والحب الإلهي ، ومشاكل

الحياة والوجود وأكثر من الابتهالات والتسبيحات المشرقة المنيرة.

تقول رابعة العدوية مخاطبة المولى عز وجل :

أحبك حبين : حب الهوى وحباً لأنك أهل لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى فشغلي بذكرك عمن سواكا
وأما الذي أنت أهل له فكشفك لي الحجب حتى أراكا

وتقول أيضاً :

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضابُ
وليت الذي بيني وبينك عامر وبيني وبين العالمين خرابُ
إذا صح منك الود فالكل هيّن وكل الذي فوق التراب ترابُ

ويقول ابن عربي :

أدين بدين الحب أنّي توجهت
ركائبه ، فالحب ديني وإيماني

وآخر يقول مناجياً ربه :

ليلي بوجهك مشرق وظلامه في الناس ساري
والناس في سدف الظلا م ، ونحن في ضوء النهار

وصوفي آخر يترنم :

والله لو حلف العشاق أنهمُ موتى من الحب ، ماماتوا ولا حنثوا
ترى المحبين صرعى في ديارهم كفتية الكهف لا يدرون كم لبثوا

ثم انظر هذه النفس العاشقة التي تعشق كل ما في الوجود الظاهر ، وتتفانى في المنظور واللامنظور ، يدفعها حبها الى الاندماج التام .

ومن عجبٍ أني أحن إليهمُ وأسأل شوقاً عنهمو وهمُ معي

وتبكيهم عيني وهم في سوادها   وتشتاقهم نفسي وهم بين أضلعي

عشرات بل آلاف من القصائد والأشعار الرقيقة اليانعة ، التي تصور تلك الأحاسيس الطاهرة الجياشة ، في الشعر الصوفي الجميل ، كلها تقف في مكانها في الأدب الاسلامي شاهدة على رسوخ الشعر وتنوعه ..

وكان شعر أبي العلاء المعري بقلقه وآلامه النفسية وآرائه الفلسفية ، معلماً آخر من معالم الفكر الإسلامي ، وقمة من قممه ، هذا على الرغم من موجات اليأس وشطحات الفلسفة التي كانت تنتابه من آن لآخر . وإني لاعتبر أبا العلاء المعري وأمثاله شاهداً من شواهد التجديد الفكري والحرية الفنية في الأدب العربي ، ووثيقة مشرفة من وثائق التطور وصدق التعبير الأدبي سواء في شعره أو نثره ..

أجل إن في الشعر العربي لروائع في الحب ..

وفيه خوالد في السياسة والحرب ..

وفيه لمحات عميقة عند الحديث عن النفس وأهوائها ونزعاتهـا ..

وفيه إلهيات وزهديات من أرق وأروع الشعر على الاطلاق .

حتى الانشقاقات الطائفية سواء اكانت ناجمة عن نزعات شعوبية او اختلافات مذهبية ، كانت منبعاً ثرياً لقصائد الشعر الفريـدة ..

ومن قال أن الشعر العربي مالأ الخلفاء والحكام ولم يسمح لنفسه بنقدهم وإدانتهم ؟؟ ألم يسمعوا عن شعراء قتلوا من

أجل قصيدة قالوها ، أو نقد جارح وجهوه إلى طاغية ؟؟

عندما انحرف بنو امية ، هتف شاعر العصر قائلاً :

بني أمية هبّوا طـال نومكمُ إن الخليفة يعقوب بن داوودِ
ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا خليفة الله بين الزق والعودِ

وشاعر ثالث يرى أن الفتنة على الأبواب ، وأن الدماء توشك أن تسفك ، فيُقتل الرجال ، وتُسبى النساء فيهتف محـذراً :

أرى خلل التراب وميض نار ويوشك أن يكون له ضرامُ
لئن لم يطفها عقلاء قـوم يكون وقودهـا جثث وهامُ

لم ينفصل الشعر العربي عن الحياة ، ولم يقف عند وصف الناقة والبكاء على الاطلال ، ومعاقرة الخمر ، ولم يتغزل فحسب بمحبوب ، أو يربط نفسه بجزئيات صغيرة ، أو ينطوي على نفسه ، بل إن الشعر العربي عاش الحياة بكل ألوانها وصراعاتها وساهم في قضايا الحرية الفكرية ، وخاصة معارك النضال ضد الطغاة في الداخل والخارج ، وعبر عن آلام الشعب وآماله ، وانطلق في رحبات العالم الخارجي الكبير ، وجاس خلال النفس الإنسانية العالم الداخلي الغامض ، وراد مجالات مختلفة ..

ولا يعيب الشعر العربي خلوه من الملاحم بأشكالها المحددة فقد كانت ملاحمه معنوية اكثر منها شكلية ذات قواعد خاصة ، ولولا ضيق المقام لاستشهدنا بالكثير من روائعه وفرائده ، وحتى شعر الخلاعة والمجون ، رغم انحراف مضامينه لم

يفقد أصالته الفنية ، ولا دلالاته العميقة ، لقد كان هذا الانحراف وهذه الخلاعة انعكاساً لبعض المجتمعات المتحللة المتعفنة ، وصورة صادقة لانهيار الأخلاقيات تحت وطأة ظروف معينة ، ومن ثم فقد كانت لها دلالاتها وإن لم تسمُ مضامينها .

لم يكن الشعر العربي اذن انعزالياً ..

ولم يكن ضيق الأفق ، قصير النظر ..

بل كان يتميز بالمعايشة الاجتماعية ، وأغلب شعرائنا الكبار – نبتوا من طبقة الشعب الكادح ، كانوا فقراء قاسوا الكثير في طلب العلم ، وكافحوا طويلاً حتى اكتملت أدواتهم الفنية ، وتلقوا الثقافات الوافدة من فارسية وهندية ويونانية قبولاً حسناً ، وتأثروا بها ، وأثروا فيها ، ولا يضير الشاعر مولده في بيئة فقيرة أو غير فقيرة وانما يهمنا الثقافة التي شرب منها ، ومدى تأثره بالعقيدة وانفعالاته بها ، وصدوره عنها ، فالتصور الطبقي وتصارع القوى الطبقية ، ومشاعر الحقد والكراهية التي تنبت في صدور الفقراء ضد الاغنياء أوضاع لا مكان لها في المجتمع الإسلامي الصحيح ..

* * *

وحينما نعود لفن القصة والرواية في الادب العربي ، نصطدم بخلافات كثيرة في الرأي حول هذا الموضوع [1] ،وتبرز الصعوبة واضحة جلية ، حينما ندرك أن فن القصة بصورته

(١) انظر كتاب « فن الرواية العربية » لفاروق خورشيد .

الراهنة الناضجة من حديث ، ومع ذلك ، فإن فن القصة لم يخل منه الأدب العربي ، عشرات القصص بعقدها الدرامية ، وعناصرها الصراعية ـ بين الأبطال أنفسهم ، وبين الإنسان والقدر ـ وجدت في الكتب القديمة ، وبعد إشراق الدعوة الإسلامية وجدت القصص أيضاً ، في القرآن مثلاً . تكلمنا عن قصة يوسف واستيفاء عناصرها الفنية والدرامية ، وتطور أحداثها ، وبلوغها قمة ناضجة مؤثرة ، ثم بلوغ النهاية في تجل وإشراق ووضوح ، ثم بعد القرآن حفلت كتب الأدب والتاريخ بقصص كثير ، والمشكلة في هذا اللون من القصص أنها قد تقترب كثيراً من السرد الخبري ، وقد تقترب أحياناً من الفن القصصي ، ومع ذلك فنحن أمة لها أساطيرها وقصصها ، وكثير من الوعاظ القدماء كانوا يؤدون عملهم عن طريق ما يسمى « بالوعظ القصصي » حكايات كثيرة عن بني اسرائيل وشعبهم .. وقصص عن الخطاة والمذنبين ، والاتقياء الصالحين ، وكيف ينقلب هؤلاء وهؤلاء الى النقيض في فترة من فترات الصفاء الروحي ، أو الضعف الإنساني ، وقصص الحب والحروب ، وقصص ألف ليلة وليلة والقصص الشعبي عن عنترة وأبي زيد والمهلهل وغيرهم ..

القصة بمعناها العام أصيلة إذن في أدبنا العربي وإن تفاوتت أركانها الفنية ، ولا غرابة في ذلك ، فإن مفهوم القصة الحديثة في عصرنا الحديث قد تغير من مدرسة إلى مدرسة ، ومن كاتب الى آخر . إن قصة « دروب الحرية » لجان بول سارتر ،

تختلف في طريقة ادائها وتركيبها عن قصة « الحرب والسلام » لتولستوي ، وعن قصة « رباعية الاسكندرية » للكاتب « لورنس داريل » ، وهناك القصة التحليلية النفسية ، والقصة الرمزية ، والقصة الكلاسيكية .. الخ وهناك القصة التي تعتمد على « عقدة » محددة واضحة ، وهناك القصة التي لا تقـر بذلك ، وترى أن العقدة ليست موقفاً محدداً بذاته ، وإنما قد تكون فكرة خاصة تسيطر على جو القصة من أوله إلى آخره . وليس لها تحديد زماني أو مكاني في صفحات القصة . وهكذا ..

أما من المقامة العربية ، فقد كان في الإمكان أن تكون خطوة هامة نحو خلق اللون القصصي الروائي لولا غلبة الصنعة ، وألوان البديع والتأنق اللفظي ، الذي أوشك أن يغرق في خضمه ملامح الحدث القصصي ورسوم شخصياته المتباينة ..

* * *

ومع ذلك فإن فن القصة بصورته الناضجة لم تعرفه البشرية الا في العصور الحديثة ، ولم يقف الأدب العربي منه موقف المتفرج إذ سرعان ما ترجم بعضها إلى العربية ، وأخذ يقدم محاولاته الأولى في وقت مبكر حتى اصبح – في الوقت الحاضر – للقصة العربية مكانة مرموقة ..

بقي أن نقر أن أدب المسرح بإطاره الفني المتكامل لم يكن له وجود في أدبنا القديم ، ونقر كذلك أنه إلى الآن لم نبلغ فيه مرحلة جديرة بالثناء المستطاب ، إذ لا شك أن العمل المسرحي عمل تكنيكي بالدرجة الاولى وعـلى مستوى أدق وأعقد

من الرواية أو الصور الشعرية ، ويحتاج لنضوج ومران اكبر ..
وأخيراً نقول ، إن أدبنا العربي – مثله مثل الكائن الحي – تتعاوره تقلبات التاريخ ، وتعمل فيه عوامل الضعف والقوة ، والتقدم والتخلف ، ويخضع لمؤثرات الحكم والثقافة والعقائد ، ومن ثم فقد كان كالخط البياني ، قد يسمو حيناً ويوشك أن يصل قمته ، وقد ينحني ويقترب من القاع فيؤول الى التخلف والجمود ، وتلك سنة الله .

* * *

بقي سؤال ، الى أي مدى اتفقت مضامين الأدب العربي القديم مع المفاهيم الإسلامية ؟؟

والإجابة على مثل هذا السؤال ليست سهلة ، إذ أن مجالات الأدب الاسلامي قد ناصرت عديداً من الاتجاهات الفكرية ، في فترات معينة ، وركدت في فترات أخرى ، وانعكس عليها هوى الحكام أحياناً ، والتيارات الفلسفية (علم الكلام) أحياناً اخرى ، كانت المسافة بين القيم الاسلامية والتعبير الأدبي تتسع ثم تضيق وهكذا ، ولهذا فليس في الاستطاعة إصدار حكم كلي قاطع ، وإنما يضطر الباحث اضطراراً إلى إصدار أحكام جزئية ..

لكن القرآن كان دائماً النموذج الفريد الذي يستهلمه البلاغيون والنقاد والفنانون ، وكانت أحداث التاريخ الإسلامي وأيامه المشرقة معيناً لا ينضب للفن العربي ، وكانت فضائل الشجاعة والصبر والعدالة والصدق والكرم كلها – وهي نابعة من العقيدة السمحاء – نغماً حلواً شيقاً في أشعارهم وأثرهم الفني .

مع الأدب الإسلامي الحديث

من الواضح أنه لا يوجد أديب عربي واحد التزم منهجاً إسلامياً محدداً فيما ينتج من أدب القصة أو المسرحية أو الشعر ، وإن كان لبعض أدبائنا جزء من أدبهم صدر عن شعور إسلامي غير أن اقبال شاعر الإسلام وفيلسوفه الكبير وصاحب فكرة انشاء دولة باكستان الإسلامية ، هو أول أديب مسلم في العصر الحديث استطاع ان يستلهم الاسلام في وضع فلسفته المشهورة « فلسفة الذات » او « خودى » وكان شعره وعاء لهذه الفلسفة التي آمن بها ، ودعا إليها في صدق وحرارة ، ولم يحظ شاعر أو فيلسوف مسلم بشهرة تضارع شهرة شاعرنا الكبير في هذا العصر ، وقد أفردنا لهذا الشاعر كتاباً صدر منذ سنوات [1] ، تحدثنا فيه عن شعره وفلسفته ومنهجه الفني ، ومن الواجب أن يحظى إقبال بمزيد من الدراسه ، وأن تحظى فلسفته بمزيد من الشيوع والفهم ، وهذا أمر بديهي بالنسبة لقمة من قمم الفكر الإسلامي .

---

(١) اقبال الشاعر الثائر

نقول إن أدباء العربية ليس فيهم أديب واحد نستطيع أن نعتبره ممثلاً لاتجاه الإسلامية في الادب في معظم إنتاجه، فمثلاً شوقي أمير الشعراء له عديد من القصائد في المناسبات الاسلامية المختلفة كالهجرة والمولد النبوي، وله نهج البردة الشهيرة، وهمزيته الرائعة، وله بعض القصائد التي تترجم عن حياتنا الاجتماعية والسياسية ومشاكلها، وهذه بدورها لا تخرج عن صبغتها الإسلامية، لأن مشاكل المجتمع وأحداثه الكفاحية جزء من العقيدة الشاملة المسيطرة — أو المفروض أن تكون مسيطرة — على حياتنا في شعبها المختلفة، وقد أفرد بعض مؤرخي الأدب مؤلفات عدة عن شوقي منها «شوقي وشعرة الاسلامي» ومنها «الدين والأخلاق في شعر شوقي». وكان شوقي رحمه الله ينظر إلى أيام الإسلام الأولى نظرة إحترام وتقدير بالغين، وينظر إلى مبادئه العالية نظرة المؤمن بها، الواثق فيها كل الوثوق، ويترنم بأروع الشعر اذا ما تناولها، ويدعو الناس إلى التمسك بأهدابها، والنهج على سننها، وفي قصائده الأخرى كان ينتزع تشبيهاته عن السيرة الإسلامية، ويتخذ من أبطالها نماذج للقدوة، فإذا ما وصف أحداً بالشجاعة، فهو شجاع مثل خالد، واذا ما ذكر العدالة والتقوى والورع، تمثل بعمر بن الخطاب، [1] وهكذا.. لكن شوقي لم يكن كاقبال فاقبال فيلسوف قبل ان يكون

(١) انظر كتابنا «شوقي في ركب الخالدين» فصل «شوقي شاعر مصر والعروبة والاسلام».

شاعراً ، ولفلسفته سمات وملامح وشخصية مميزة ، عبر عنها شعراً ونثراً ، ولم يخرج عنها ، وشوقي شاعر وليس فيلسوفاً ، وشعوره الإسلامي شعور رجل مسلم دارس لأمجاد الإسلام وتراثه ، معجب ببطولته وأيامه الخالدة ، ومبادئه السامية إعجاب شاعر ، وفي اعتقادي أن شوقي كان أعظم شعراء عصره تحدثاً بأمجاد الاسلام ومبادئه ، ولم يكن ينقصه غير التخطيط الفكري ، أو البناء الفلسفي الذي يصدر عنه كما فعل شاعرنا الكبير محمد إقبال .

وقد لوحظ ان موضوعات شوقي الإسلامية ، تقترب من الموضوعات التي أثارها غيره من الكتاب ، فقد انبرى طائفة للرد على اتهامات المستشرقين ، وترهات المتحللين ، فنجد في شعره ـ كما في كتابات محمد حسين هيكل [1] ، والعقاد [2] وغيرهما ـ تعرضاً لمشكلة الحرب في الاسلام ، وهل الإسلام دين سيف ، وهل إسراء الرسول كان بالروح أم بالجسد .. الخ

يقول شوقي :

الحرب في حق لديك شريعة ومن السموم الناقعات دواءُ

ويقول في موضع آخر :

يتساءلون وأنت أشرف مرسل بالروح أم بالهيكل الإسراء ؟

ويظل شوقي يجيب على هذه الاسئلة المعروفة ، متخذاً من من شعره منبراً لإعلاء كلمة الإسلام ، مدافعاً عنها ، مفسراً

---

(١) في « حياة محمد »

(٢) « عبقرية محمد »

لأحداثها ، في تعبير شعري رقيق خال من تعمق الفلسفة ومنهجها .

يقول عن الرسول :

وكان بيانه للهدي سبْلا   وكانت خيلـه للحق غابـا
وعلّمنا بناء المجد حتى   أخذنا إمرة الأرض اغتصابا
وما نيل المطالب بالتمني   ولكن توُخذ الدنيا غلابـا
وما استعصى على قوم منال   اذا الإقدام كان لهم ركابا

ولم تكن هذه الاشعار – في المقطوعة السابقة مثلاً – مجرد مديح في الرسول وتغن بمبادئه وأثره الخالد في حياة البشر ، بل كان ينتهز فرصة مديحه صلى الله عليه وسلم ، ويحاول أن يوقظ شعبه النائم الرازح تحت نير العبودية والاستعمار ، رابطاً المفاهيم الدينية بقضايا النضال واليقظة والتحرر ، باثاً فيهم معاني القوة والثورة والطموح في قلوبهم ، بل كان يربط هذه المعاني الإسلامية بالقضايا الاجتماعية في وقت مبكر .. أما تراه يقول عن الرسول في همزيته الرائعة : –

الإشتراكيون أنت إمامهم   لولا دعاوى القوم والغلواءُ

ويقول :

أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى   فالكل في حق الحياة سواءُ

ويقول :

الله فوق الخلق فيها وحده والناس تحت لوائها أكفاءُ [١]

ولقد وفق شوقي أيما توفيق وهو يتغنى بهذه الفضائل ، ويستلهم المبادىء الإسلامية ويجلوها ، وهو يشارك بقلمه في قضايا شعبه السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، كما كانت دعوته إلى الوحدة بين الشعوب العربية والإسلامية دعوة صادقة مخلصة ، نبعت أولاً عن إيمانه بالخلافة العثمانية ودفاعه عنها في بادىء الأمر ، ولما انهارت الخلافة ، لم يتخل عن الدعوة إلى هذه الوحدة ، فإذا حرّكه في بداية الأمر غرض سياسي فقد دفعه إليها في نهاية المطاف شعور إسلامي واع .

ورغم ارتباط شوقي بالقصر الذي تربى فيه ، إلا أن الرجل — والحق يقال — لم يغفل جانب القضية الكبرى ، قضية الشعب الذي يسعى إلى التحرر الداخلي والخارجي ، فنراه ينعي على الطغيان ، ويمجد الدستور والحرية والنظام الشوري .

زمان الفرد يا فرعون ولّى ودالت دولة المتجبرينـــا
وأصبحت الرعاة بكل أرض على حكم الرعية نازلينـــا

* * *

فؤاد أجل بالدستور دنيا وأشرف منك بالإسلام دينـــا

---

(١) جمع هذا البيت المعجز علاقة البشر بخالقهم وعلاقات الناس مع بعضهم في ايجاز رائع

ويقول في مكان آخر :

والدين يسر ، والخلافة بيعة والأمر شورى والحقوق قضاءُ

أجل .. ان مكانة شعر شوقي الإسلامي مكانة سامقة في عالم الأدب العربي ، هذا الى جانب إدخاله الشعر التمثيلي لأول مرة في تاريخنا الأدبي ، ومهما قيل عن ارتباطه بالقصر وإخلاصه له ، فإن هذا لن يغض من روائعه الاسلامية ، وقريحته اللماحة ، وغيرته الفائقة على هذا الدين ومستقبله ومستقبل أبنائه .

* * *

وحافظ ابراهيم شاعر النيل ، تلميذ محمد عبده ، وصاحب الثقافة الأزهرية المتواضعة ، وابن الشعب الكادح الفقير المستعمَر هو الآخر لعب دوراً أدبياً هاماً في مجال العقيدة الإسلامية ، ولعل أشهر قصائده قصيدته « العمرية » الخالدة ، التي ذكر فيها تاريخ عمر بن الخطاب وأخلاقه ، وحكمه النظيف المثالي ، وفتوحاته الرائعة ، وسيرته العطرة .

وراع صاحب كسرى ان رأى عمرا بين الرعية عطلا وهو راعيها
وعهده بملوك الفرس أن لها سوراً من الجند والأحراس تحميها
رآه مستغرقاً في نومه فـــرأى فيه الجلالة في أسمى معانيها
فوق الثرى تحت ظل الدوح مشتملا ببردة كاد طول العهد يبليها

* * *

وقال أقوا حقق أصبحت مثلا — وأصبح الجيل بعد الجيل يرويها
منت لما أقمت العدل بينهمو — فنمت نوم قرير العين هانيهـا

ويقول في موضع آخر من العمرية :

رأي الجماعة لاتشقى البلاد به — رغم الخلاف ورأي الفرد يشقيها

وشعر حافظ صدى لدعوات الاصلاح في مجالات السياسة والاجتماع والاقتصاد والتعليم ، بل يعتبره النقاد ترجماناً لأفكار محمد عبده وقاسم أمين وسعد زغلول وغيرهم من زعماء الإصلاح في هذا العصر .

الأم مدرسة إذا أعددتها — أعددت شعباً طيب الاعـراق

ويقول :

بالعلم والمال يبني الناس ملكهمُ — لم يبن ملك على جهل وإقلال

* * *

أما أحمد محرم [1] ، فقد حاول أن يقدم ملحمة إسلامية ، تتحدث عن معارك الإسلام الكبرى ، وأحداثه التي غيرت مجرى التاريخ ، وتغنى في حرارة وصدق بالمثل الإسلامية ، والفضائل العظيمة التي تبرز في كل سطر من سطور كتاب الإسلام الضخم ، ولعله كان أكثر شعرائنا المحدثين انكباباً

(١) انظر كتاب « احمد محرم – شاعر العروبة والاسلام » تأليف الأستاذ الجيوشي .

على هذا الموضوع ، وتحمساً له وتفانياً فيه ، وإن كان دونهم في مجال الإبداع الفني ..

* * *

أما مصطفى صادق الرافعي ، فقد كان مجيئه ظاهرة أدبية ملفتة للنظر ، لقد كان ظهوره إبان النهضة الأدبية الكبرى التي تزعمها طه حسين والعقاد والمازني وشكري وهيكل ومطران وشوقي وحافظ ولطفي السيد وغيرهم ، كان تيار التجديد دفاقاً مندفعاً ، وكانت هناك دعوات غريبة للغض من القيم الدينية ، والتراث العربي الأصيل ، وتحريض للمثقفين على الاندفاع نحو الغرب والنهل من ثقافته ، والنسج على منواله دون تحفظ أو تبصر ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر برز الرافعي متحدياً صارخاً في وجه الاندفاع الأعمى نحو كل ما هو غربي ، لقد مثل الرافعي دوراً كان لا بد أن يمثله ، دافع عن القديم ، وثار من أجل اللغة والدين والقيم العريقة ، واستمسك بأسلوب العربية الفصحى وإن اغرب في اللفظ ، أو بدا التعقيد في بعض تعبيراته ، لم يكن غريباً أن يتطرف الرافعي وهو يرى طائفة من المفكرين يدعون الى اعتبار العامية لغة للكتابة ، وطائفة أخرى تدعو الى كتابة العربية بالأحرف اللاتينية ، وثالثة تأخذ على الدين جمود رجاله ، وتوقف نمو فقهه وأحكامه ، لقد اعتبرها الرافعي معركة مقدسة ، واعتبر ادنى تفريط فيها جناية كبرى ، ومن ثم حميت المعركة بينه

وبين غيره من النقاد أمثال طه حسين والعقاد ..

وعلى الرغم من كل ما يقال في حق الرافعي ، وفي أسلوبه المعقد ، وفي آرائه الغريبة إلا أنه مما لا شك فيه قد أدى دوراً كبيراً يتفق مع معتقداته وثقافته وظروف عصره ، ففي مقالاته التي كتبها في « وحي القلم » تظهر براعته الفنية ككاتب قدير ، فكتابه « وحي القلم » بالذات واضح مفهوم ، وموضوعاته التي عالجها فيه محددة بينة المقاصد ، وهي تجمع بين القصص الهادفة ، والمقالات الاجتماعية والسياسية العميقة ، والدراسات النقدية والإسلامية المفيدة ، وعلى الرغم من أن قصصه لم تتبع المفهوم الحديث لفن القصة تماماً ، إلا أنها ذات دلالة توحي بأن الرجل لم يكن منعزلاً عن عصره ، بعيداً عن أحداث المجتمع كما يزعم البعض ، بل انفعل بكل القضايا والحركات الفكرية المعاصرة ، وليس أدل على ذلك من تلك المعارك الحامية الوطيس التي نشبت بينه وبين معاصريه ، وتلك الصحف والمجلات التي فتحت له صدرها ، وهؤلاء التلامذة العديدون الذين آزروه ، وتتلمذوا عليه ، وآمنوا بطريقته . وفي اعتقادي أن كتاب « وحي القلم » بأجزائه كلها تعبير صادق عن وجهة نظرنا ، ولقد كان الرجل محافظاً على القيم الاخلاقية والعقيدية فيما يكتب ، ولعل محافظته وتشبثه بهذه القيم هو الذي دعا مخالفيه في الرأي لأن يرموه بالجمود والرجعية ..

وربما كان كتابه « المساكين » أقل وضوحاً من « وحي القلم » لكنه لم يخرج عن خطته الاخلاقية ومنهجه الفني ..

لكن الغموض يبدو اكثر في كتابه «أوراق الورد» و «حديث القمر» و «السحاب الأحمر»، وهي تعالج موضوعات عاطفية، وتتعمق في النفس والوجدان، وتصور خلجات الأعماق، ونزعاتها وانتفاضتها الهامسة الغامضة، ورغم غموضها بعض الشيء، إلا أن هذه الكتب الثلاثة لم يسبقها شبيه لها في أدبنا العربي على ما أعرف، وأظن أن الرافعي أول أديب عربي استطاع ان يفلسف الحب ومـا يخالطه من مشاعر ويغوص إلى أعماق النفس، ويحلل فورانها بطريقة لم يسبقه بها أحد.. كان واحداً بلا شك بين رواد النفس الإنسانية في أدبنا العربي وما أقلهم.. ولن يعيبه غموضه فسوف تكفيه أصالته وذكاؤه وغوصه في أعماق الإنسان، وذلك العالم الكبير العصي على الفهم والإدراك. أما كتاباته في اعجاز القرآن او تحت راية القرآن، فقد كانت محاولة جادة وأصيلة في إبراز القيم الفنية والأدبية لكتاب الله. لا تنقصها الحرارة التي عرف بها الرافعي، ولا الغيرة الدينية التي لم تخفت حدتها طول حياته..

ولشعره رقة وعمق، لم يكن جافاً بارداً كما زعم خصومه ولم يخل من المضمون الأصيل كما ادعوا، وتحضرني هذه الأبيات التي يصور فيها حباً حزيناً دامعاً، فيخفق لها قلبي، وأشعر معه بالأسى واللوعة..

من للمحب ومـن يعينه والحب أهنؤه حزينـه

أنا ما عرفت سوى قساوته فقولوا كيف لينـــه؟

ان الرافعي لم يزل في حاجة الى الدراسة والبحث ، وتراثه الأدبي لم يزل في حاجة الى تقييم حقيقي ، ومكانته الأدبية ، ونبل المشاعر التي حركته ، وعنف المعارك التي خاضها لا بد أن تفهم كما يجب .

* * *

وكان لأدب توفيق الحكيم نكهة حلوة ، فيه سحر الشرق وجلاله ، وفيه جمال الروح وأشواقها ، فيه انتصار للقوى الروحية وتشبث بها . واهتمام بالمشاكل المجردة كالخير والشر والقضاء والقدر ، ولقد انتزع الحكيم كثيراً من مادته الأدبية من التاريخ والأساطير مثل مسرحية «أهـــل الكهف» «وسليمان الحكيم» و «شهـــرزاد» و «بيجمالـــيون» ، و «براسكا» واوديب ملكا .. وغيرها ..

وعلى الرغم من أن الحكيم انتصر للقوى الروحية ، ولم ينكر عالم ما وراء الطبيعة ، إلا أنه كان فناناً يضع نصب عينيه قداسة الفن وأصوله ، قبل كل شيء ، غلب فنه على ما سواه وإن تشبع بفلسفة الشرق وارتوى من مناهله الروحية ، وبهذا كان أخلص الفنانين المؤمنين بالقوى الروحية فناً وأداءً وكانت مسرحيته «محمد» لحناً رطباً يفيض رقة وسلاسة ويمتلىء بالصور الحية المتحركة في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ،

وبالسلوك الإلهي الرائع[1] ، ولا يعنينا هنا أن نتكلم عن تكنيكها ومدى مطابقتها للقواعد المسرحية ، لأن ما نهتم به في هذا العرض السريع يتصل بالمضمون أكثر مما يتصل بالشكل .

وفي كتاباته الاخرى « عودة الروح » و « الرباط المقدس » و « يوميات نائب في الأرياف » ، و « الصفقة » ، و « مدرسة المغفلين » يعالج الحكيم عدداً من قضايانا الاجتماعية المعاصرة ، في ضوء فلسفته التي أفرد لها كتاباً ، وهي فلسفة « التعادلية » ، وفي ضوء آرائه في « الفن والأدب » .

وقد ألمحنا من قبل إلى مسرحيته الأخيرة « السلطان الحائر » وكيف أنه استمد أحداثها من التاريخ الاسلامي ، واتخذه مادة لتصوير الصراع الخالد بين السيف والقانون ، ووقف ببطل المسرحية عندما أسماه بعض نقادنا موقف « الاختيار الوجودي » اذ يشعر السلطان بالحيرة وهو في حالة يستطيع معها ان يحكم السيف ويسخر من القانون ، او ينتصر للقانون ، وينحي السيف بعيداً ، لأن الحق فوق القوة ، ولأن الحق منطق ، ويتجلى تأثر الحكيم بالقيم الإسلامية حينما يجعل أساس المشكلة فتوى لقاض من العلماء المسلمين ، تتهم الحاكم بأنه ليس حراً ، والعبد لا تحق له طاعة إلا إذا اعتق ..

ورغم ما أصاب تصوير شخصية القاضي من بعض الاضطراب والتخلي عن جزء من القضية التي وضع رقبته تحت رحمة

---

(١) انظر كتاب « محمد في الادب المعاصر » تأليف فاروق خورشيد واحمد كمال زكي

السيف من أجلها ، إلا أن مسرحية السلطان الحائر مثلاً رائعاً لما نسميه بالأدب الاسلامي ، وما نسميه « بالاختيار الإسلامي » وليس « الاختيار الوجودي » كما زعم بعض النقاد ، فمادة القصة وفكرتها وشخصياتها ومضامينها الفكرية كلها واقع إسلامي مستمد من التاريخ ، ونهايتها انتصار للمثل والمبادىء على القوى المادية الغاشمة ، وكم كنا نود ان نستطرد في شرح المسرحية وتحليلها على هدى هذه المفاهيم لولا ضيق المقام .

وخلاصة القول ، نقول إن الحكيم أديب شرقي مسلم متحرر متطرف في تحرره ، لم يستطع أن يقرر في صراحة ووضوح إيمانه بمبدأ الالتزام إطلاقاً ، وان التزم في كثير من المواضع بفلسفته « التعادلية » التي شرحها وفصل بناءها في كتابـــه .

والحكيم إلى جانب ذلك رائد من رواد المسرح العربي ، وأحد رجال الطليعة في القصة العربية ومفخرة من مفاخر أدبنا العربي الحديث ، والحكيم فنان تظهر فيه ملامح الشرق وروحانيته ، لا ملامح الإسلام وحدها إلا في أحيان قليلة ..

* * *

أما علي باكثير مؤلف « وإسلاماه » ، فقد بدأ حياته دارساً للاسلام والفقه والحديث والتاريخ ، أراد ان يكون عالماً مجتهداً من علماء الإسلام ، وشاء الله ان يصبح أديباً من أدبائه ، واستطاع باكثير ان يصور بعض صفحات التاريخ الإسلامي

الخالد ، ويعبر عن نماذجه الفذة في قصته «واسلاماه» ، حينما تعرض الاسلام للغزو الصليبي والتتري وحينما اتخذ شخصيات «ابن تيمية» ، و «العز بن عبدالسلام» وغيرهما نماذج انسانية تشبعت بروح العقيدة وانتصرت لها وبها .

وللاستاذ باكثير مسرحيات «داراين لقمان» عن الحروب الصليبية و «اله اسرائيل» عن المشكلة اليهودية ، و «الحاكم بأمرالله» و «جحا» و «شهرزاد» و «اوديب» ، وله من القصص «سيرة شجاع» على غرار «واسلاماه» وله من المسرحيات الاجتماعية «الدنيا فوضى» .. الخ

وكانت أغلب كتاباته مستمدة من التاريخ أو الأساطير القديمة ، ومشى على نهج الحكيم في التفاته إلى بعض المشاكل الفلسفية المجردة ، وإن لم يستطع اللحاق به في التفوق الفني الذي جعل الحكيم واحداً من كبار كتّاب ادبنا ورواده ، لكن ، كان باكثير اكثر ارتباطاً واستمساكاً بالمبادىء الاسلامية ووجهة نظرها في الحياة ، ومن ثم فإن أدبه جدير بدراسة عميقة وبتحديد صادق لقيمته الفنية والعقيدية .

* * *

هذه الجولة السريعة في الادب الاسلامي الحديث ، لم تستطع ان تستوعب كل ما ظهر منه ، ولم تتناول كل كتّابه ، وخاصة أدباء الجيل الجديد ، فالمجال هنا أضيق من أن يقوم بإحصائية شاملة لأدبنا الإسلامي الحديث ، لكن ما قدمناه

مجرد أمثلة موجزة ، وتعليقات سريعة ، وأحكام عامة تحتاج لمزيد من العناية والدرس العميق المنظم ، وأرجو أن تتاح فرصتها لي أو لغيري للقيام بها خدمة للفن والدين .

ولا يفوتني في هذا المقام أن أشير إلى تلك الألوان الفنية الرائعة التي قدمها الدكتور طه حسين في كتبه ، « على هامش السيرة » و « الوعد الحق » وغيرهما ، وكانت هذه الألوان المميزة مزيجاً من الأدب والتاريخ ، ليست بالقصة ولا بالمقالة ولا بالدراسة التاريخية على وجه الدقة ، وإن اقتربت من هذه ، أو اقتربت من تلك في بعض مواضعها ، لكنها مع ذلك لون أدبي ، ناصع البياض ، مشرق اللمحات .. واضح الأصالة ، ولا بد من الإشارة أيضاً الى إسهامه في تحديد بعض القيم النقدية في الأدب الحديث ، وترجمة بعض الآثار العالمية إليه ، والدعوة إلى التجديد وإحياء التراث ، واعادة النظر فيه والتطور به الى مرحلة أنضج وأروع .

*

في سطور
أهم المذاهب الأدبية في الأدب الغربي

الكلاسيكية :

- أقدم مذهب ادبي
- تقوم على إحياء التراث الاغريقي اللاتيني
- الاصول النظرية التي وضعها ارسطو هي انجيل الكلاسيكية .
- تنحصر أصولها في الأدب التمثيلي (فن الدراما والتراجيديا) والقصة .
- مهدها فرنسا .. وأشهر اعلامها راسين وكورني وموليير
- تتميز بجودة الصياغة والوضوح والموضوعية وعدم الإسراف العاطفي والاعتصام بالعقل الهادىء المعتدل ، والوحدات الثلاث في المسرحية (الموضوع – الزمان – المكان) .
- تهتم بالمشاكل الإنسانية العامة .. كالحب والبغض والغيرة .. الخ

الرومـــانسية :

- أساسها ثورة تحريرية لتخليص الأدب من سيطرة الآداب الاغريقية واللاتينية القديمة.
- كانت ثورة على كافة القيود الفنية.
- أهم انتاجها الشعر الغنائي، ولها تمثيليات شهيرة أيضاً.
- ضابطها الوحيد هو هدى السليقة وإحساس الطبع.
- ولد هذا المذهب في فرنسا، وقد مهدت له حالة نفسية معينة إثر انهيار مجد نابليون، وهزيمة فرنسا، وضياع آمال الشبيبة تحت أنقاض الحروب التي قهرتهم واستعبدتهم فانطوى الأفراد على أنفسهم، فجاء ادبهم انطوائياً أسود متغنياً بالألم والعذاب والضياع.

- مميزاتهـــا :

ـ مرض العصر : شقاء الفرد بين آماله الواسعة وقدرته العاجزة بعد الثورة الفرنسية التي قدست الحرية الفردية، ثم انهيار الثورة فجأة.
ـ اللون المحلي.. ليحاربوا به الاتجاه الكلاسيكي العام..
ـ الفرديـــة.
ـ الخلق الشعري.. الادب ليس محاكاة ولكنه خلق.
ـ النغمة الخطابية (مثل هوجو وبيرون)
ـ الطبيعة معبد واحد فلا آلهة كثيرة ولا ضجيج.

• تغنيهم بالألم في إفراط ، وقد يصبح تصنع الاغراق في الألم وبالاً على الفرد والمجتمع ، وفي أدبهم هذا تبرير للرذائل ، وأنواع الضعف الخلقي .
• لا يؤمن بالوحدات الثلاث .. ولا يحترم الاوحدة الموضوع ، ولا يؤمن بالتقسيم التعسفي إلى ملهاة ومأساة .
• أدبه مليء بالخوارج والشواذ والعنف ، واعتماد المسرح على العاطفة والخيال على العكس من الكلاسيكية .
• زعيمها ورائدها فيكتور هوجو .

الواقعيـــة :

• الواقعية – على عكس المثالية – ترى الحياة شراً ووبالاً ومحنــة .
• مهد لها فولتير [1] ، ومثلها في فرنسا اونوريه دي بلزاك .
• أغلب انتاجها قصص ومسرحيات .
• الواقعية تسعى الى تصوير الواقع وكشف أسراره . واظهار خفاياه وتفسيره ، ولكنها ترى ان الواقع العميق شر في جوهره ، وأن ما يبدو خيراً ليس في حقيقته إلا بريقــاً كاذباً (ان الانسان للانسان ذئب ضار) ٢ .
• ليست رسماً فوتوغرافياً للحياة كما يزعم البعض ، ولا معالجة لمشاكل المجتمع ومحاولة حلها ، وانما هي فلسفة –

---

(١) انظر كتابه « كانديد »
(٢) الفيلسوف الانجليزي « هوبز »

خاصة في فهم الحياة والأحياء.

- اشهر انتاجها «الكوميديا البشرية» لبلزاك، وهي عدد من القصص
- «ليست هناك مبادىء وانما هناك أحداث .. ليست هناك قوانين وانما هناك ظروف، والرجل الممتاز هو من يحتضن الأحداث والظروف لكي يسيرها»[1]
- بلزاك — جي دي موباسان — فلوبير — توماس هاردي — هنري لك ..

الواقعية الاشتراكية :

- أدب هادف إلى تغليب عامل الخير والثقة بالإنسان وقدرته، مضمونة من حياة الشعب، وروحه متفائلة تؤمن بإيجابية الإنسان.

الطبيعية :

- شبه امتداد للواقعية.
- تسعى الى تصوير واقع الحياة او طبيعة الحياة وفهمها وتفسيرها ولكنها ترد هذه الطبيعة وهذا الواقع العميق الى حقائق حياتنا العضوية والغرائز والهرمونات .. الخ، وسيطرتها على المشاعر والافكار والاخلاق والسلوك في الحياة.

---

(١) بلزاك

● عيبها التعميم ، وتجاهلها لما وراء التركيب العضوي للانسان .
● اشهر رجالها اميل زولا .

الفن للفن :

● تعارض الرومانسية في اتجاهها الذاتي الانطوائي .
● الشعر عندهم غاية لا وسيلة للتعبير عن الذات .
● ثورتها على انغام الألم المغرق والضياع والاسى المستمر المفتعـــل
● دعوة الى الرجوع بالفن الى حقيقته الجماليـــة .
● لا يتعرض «مذهب الفن للفن» للمسائل الاخلاقية ، ويعتقدون أن الفن لا يحكم عليه من حيث الخير او الشر ، ولا من حيث الصحة او الخطأ ؛ وإنما يحكم عليه من حيث الجمال أو القبح .

الرمزية :

● اتجاه غيبي خاص بطريقة ادراك العالم الخارجي ، وبالوجود الذهني الذي ينحصر فيه الوجود الفعلي .
● اتجاه باطني وهو السعي الى اكتشاف العقل الباطن وعالم اللاوعـــي
● اتجاه لغوي خاص بالبحث في وظيفة اللغة و امكانياتها ومدى تقيدها بعمل الحواس وتبادل تلك الحواس

[1] «إن شفقاً ابيض يبرد تحت جمجمتي
التي تعصبها حلقة من حديد وكأنها قبر قديم
وأهيم حزيناً خلف حلم غامض جميل
خلال الحقول التي يزدهر فيها عصير لا نهاية له ..»

● وهناك «الرمزية الموضوعية» التي لم تقتصر على الناحية اللغوية ولا على التعبير عن الذات بواسطة الخيال وتصوراته، بل امتدت أيضاً إلى المشاكل الإنسانية والأخلاقية العامة تعالجها بواسطة الخيال وتصوراته، وبتجسيم أفكار مجردة.

الوجودية :

● اثر الحرب في النفوس، واهتزاز المفاهيم والاستخفاف بالتراث الروحي والقيم الخلقية وأفكارها.

● انكار الماهية السابقة، وعدم التسليم إلا بالوجود، وحصر الوجود بالنسبة للإنسان في «تفكير الفرد» وإنكارهم وجود أي شيء خارج التفكير ولا سابق عليه وبالتالي لا يوجد اله ولا ماهية ولا قيم أخلاقية، وإنما كل هذا تراث عتيق من المصلحة التحلل منه، حتى يستطيع الفرد الانطلاق في الحياة ليحقق وجوده [2]

● الوجودية تثور على القدر وترميه بالظلم.

---

(١) نموذج شعري «لاستيفان مالارميه»
(٢) انظر مسرحية «الذباب» لسارتر

- الإنسان يتصرف بحريته المطلقة ـ متخلصاً من المبادىء والأحكام السابقة .
- عناصر الوجودية : الحرية ـ المسؤولية ـ الالتزام .
- والالتزام هو موقف أخلاقي واجتماعي محدد من كل حدث اجتماعي أو فردي أو وطني .
- القيمة الجمالية والفنية للأدب تأتي في المرتبة الثانية بعد القيمة الأخلاقية والاجتماعية .
- الأدب الوجودي يفرق بين الالتزام وبين ما يسمى بأدب الفكرة أو الرسالة ، ويعتقد ان الأدب الملتزم يهدف الى تصوير الواقع ، والوجودية ـ في اعتقاده ـ واقع وليس قيمة (١)
- ابرز سماتها : القلق : لعدم ارتباطها بقيم أو إله وإحساسه بمسؤولية خطرة

  الهجران : بسبب الحرية المطلقة والتخلص من كل القيم

  اليأس : لانتفاء العزاء والجبرية والقدر والتعويض
- تناقضها بين الالتزامية والتخلص من القيم المتوارثة

السريالية :

- التحلل من واقع الحياة الواعية ، والزعم بأن فوق هذا

---

(١) وفي هذا تناقض واضطراب لا يخفى على القارىء .

الواقع أو خلفه واقع آخر أقوى فاعلية واعظم اتساعاً ، الواقع المكبوت في النفس البشرية ، واطلاق المكبوت وتسجيله في الادب والفن .

الفرويديـــة :

- ابراز العامل النفسي وأثره في السلوك البشري .
- استخدام النظريات العلمية في هذا المجال في الادب والفنون.
- تأثرت بنظريات فرويد في النفس والجنس .

* * *

هذا عرض سريع موجز للمذاهب الادبية الغربية ، رأينا ثبته هنا ، لنفسح مجالاً للدراسة والمقارنة وقد اخذنا هـــذا التلخيص عن بعض الكتب التي تكلمت عن المذاهب الادبية وأهمها كتاب(الأدب ومذاهبه) للاستاذ الدكتور محمدمندور .

ولعل النظر في خطة هذه المذاهب ، وما تحتويه من قيم واتجاهات وأفكار ، كفيل بأن يجعلنا نعود إلى منابع الفكـــر الاسلامي ونظرة الإسلام الكلية إلى الكون والإنسان والحياة ، ومدى ارتباط الفن بالدين ، وضرورة التزام أدبنا الحديث بالقيم الإسلامية التي ثبتت فاعليتها وأهميتها وارتباطها بأصل عقيدتنا السمحاء ..

*

الفصل الأخير

نماذج

في الصفحات القليلة القادمة نحاول تقديم بعض النماذج في القصة والمسرحية والشعر ، كإصبع تشير من بعيد إلى ما نقصده بالأدب الإسلامي ، وليس معنى هذا أنها من عيونه أو بلغت حد الروعة الفنية ، فقد أسلفنا أن هدفنا هنا في هذا الكتاب ان نوضح المضامين الفكرية للأدب الذي نريد ، وفي الوقت نفسه نؤمن بداهة بضرورة اكتمال الصورة الفنية إلى جانب نظافة المضمون الفكري وسلامته .

ولولا ضيق المجال لأوردنا بعض النماذج لإقبال وللرافعي وشوقي وحافظ وطه حسين ومحمد عبدالحليم عبدالله وخاصة ما يتفق مع وجهة النظر التي نؤمن بها ، لكن الدراسة التطبيقية بمعناها الحقيقي وسماتها المتشعبة أكبر من أن تقوم بها هـــذه الرسالة الموجزة .

للأستاذ نجيب محفوظ في عالم الرواية العربية منزلة شامخة ، ولعل من نافلة القول أن نقرر أنه علم من أبرز أعلام الأدب

العربي الحديث ، وقصصه القصيرة ذات نزعة فكرية عميقة ، وفيها دسامة ومتعة كبيرة ، ولا شك أن هذا الفنان العظيم قد اكتملت له أدواته الفنية وثقافته المتباينة ، ونحن اذ نقدم له هذه القصة القصيرة « **نصف الدين** » لا نزعم أن هذا التقديم وتلك الأحكام إنما تشمل كل إنتاجه ، بل هو حكم جزئي على أثر فني واحد من آثاره العديدة ، التي قد تتشابه وقد تختلف ، لأن نجيب محفوظ في « أولاد حارتنا » غير نجيب محفوظ في « القاهرة الجديدة » أو « السمان والخريف » أو الثلاثيـــة ..

واختيارنا لقصة « نصف الدين » يعتمد أساساً على وجهة النظر التي ننادي بها في الأدب الإسلامي ، فبطل القصة شاب إنتهازي ، كل همه الصعود وتحقيق أطماعه من أي طريق وليكن طريق الزواج من أية فتاة لأبيها أو أخيها أو قريبها حظوة ما ، أجل .. كان البطل يخطب « الوظيفة » ولا يخطب « فتاة » .. لم يكن يفكر في شريكة حياته ، وأم أولاده ، ودعامة سعادته الأسرية كما يفكر الرجل العاقل المتزن صاحب العقيدة الشريفة .. وبلغ صاحبنا في بداية الأمر أمله الذي حلم به طويلاً .. ونال مركزاً جديداً .. وارتفع مرتبه .. وأخذ يخطو خطوات واسعة في طريق النجاح المنشود ، وأصبح بدون شك محطاً للأنظار ، وتعرض لنقمة الحاسدين ، وغيرة المتقاعسين الذين يلوكون أساهم وهم على السفح متعثرون ..

لكن بطل القصة يفاجىء بانحرافات في تصرفات زوجه ،

هذه الانحرافات العجيبة ، قد أحالت أمنه قلقاً ، ونومه أرقاً ، وسعادته شقاء ، وهنا أدرك أن الزواج شيئاً آخر غير التجارة ، وأن سعادته كرب أسرة أكبر بكثير من سعادة صاحب المركز والمال ، وأن للزوجة السوية أو المثالية صفات أخرى غير تلك الصفات الاستغلالية التي رسمها له خياله فأوغل في سراب الوهم والخداع ..

وأخيراً فاض الكيل .. واستبد به العذاب والقلق .. وتغيرت فلسفته ومفاهيمه للحياة الحقة .. التي تليق به كإنسان ينشد الحب والسلام والسعادة الزوجية .. فانفجر .. انفجر على الرغم منـــه ..

لقد حطم الأستاذ نجيب محفوظ بهذه القصة تلك المعايير الاجتماعية الملفقة ، وهتك الستار عن ذلك الخلل الخلقي الذي انضوى تحت لوائه طائفة من شبابنا في ظل الفلسفات العقيمة والقيم الاجتماعية الفاسدة ، وألوان التربية الشائهة المنحرفة ..

ولهذا كان التقاوه في هذه القصة مع المفاهيم الاسلامية الواعية واليكم قصة « نصف الدين »

أخيراً قرر حامد السيد علي أن يتزوج .. وهو مفتش ضرائب ، مجد ، في الخامسة والثلاثين من عمره ، له أخت وحيدة متزوجة ، ولأمه أملاك بسيطة ولكنها مفيدة عنـــد الضرورة .. ولم تكن الرغبة في السعادة أو الحياة المستقرة مطمحه الوحيد على الأقل ، ولكنه كان يروم أولاً وقبل كل شيء مركزاً مرموقاً في مؤسسة أو شركة بعد أن لم تعد الحكومة

محققة لآماله المتعجلة ، ولم يخف ذلك عن أحد من آل بيته أو خاصة صحبه ، بل سألهم الإرشاد والمعاونة ، ودعاه أحد أصحابه من أولاد الحلال إلى نادي مصر الجديدة فمضى إليه آخذاً زينته وكان ذا مظهر حسن ، فيه ميل إلى الطول ورشاقة في القامة وفي عينيه بريق جذاب الى شارب فاحم مربع غزير ناطق بالرجولة ، وأشار صاحبه الى ناحية من الحديقة فرأى فتاة في العشرين تجلس بين رجل متوسط العمر وامرأة تقاربه في السن ، وكانت ذات مظهر عصري جداً ، مليحة وجذابة من أول نظرة . وقال له صاحبه وهما يجلسان غير بعيدين من الأسرة ..

ـ أولاً هي فقيرة يتيمة ولكن هذا الرجل هو خالها وأبوها بالتبني ، وهو مدير مؤسسة وهي خريجة في المدرسة الإيطالية ومنظرها كما ترى ممتاز .

وأحبها حامد بصفة مبدئية ولكنه على سبيل الحيطة تساءل :

ـ ولكن هل تكون أبنة الأخت بمنزلة الإبنة .

ـ أؤكد لك أنه يرعى سميحة كما لو كانت ابنته ، ويهتم بمستقبلها كل الاهتمام ثم إن بنت اخت المدير ـ أعني أي مدير ـ أسهل في الصيد الذي تروم من ابنته ، ويجب أن تتواضع قليلاً لتبلغ ما تريد ..

وتوكد حبه لها على الأثر ، وجعل يتخيل بسرعة عجيبة عش الزوجية والمركز المرموق في وقت واحد . وخطا خطوات واسعة في التحريات المألوفة والاستعداد ، ولكن اخته قالت له :

ـ يجب أن تتحرى أكثر من ذلك وألا تتعجل . فقال بثقة :
ـ فتاة ممتازة ، وخالها ـ ما رأيك ؟ نحن نتزوج من أسرة لا من فتاة ، وأنا مطمئن تماماً ..

وقابل المدير ، ابراهيم الدمنهوري ، ثم حصل القبول ، وسار كل شيء في مجراه الطبيعي ، وباعت الأم بيتاً قديماً ليستعين بثمنه على سداد النفقات المطلوبة ، ثم تم الزواج على أحسن ما يكون . وطبيعي أنه أجل مطالبه حتى يهنأ بالسعادة وحتى لا تظن به الظنون . وسميحة عروس لطيفة حقاً وعصرية ومسلية . أجل أدرك من أول يوم أن عليه أن يعتمد على خادم مدربة للأشراف على البيت إلى جانب الطباخ ، وان عروسه ليست مغرمة بوظيفة ربة البيت بحال ولكنه لم يقلق لذلك كثيراً ووجد فيه مبرراً لمطالبه عندما يئين الأوان لإعلانها ، وقال لأخته المتعضة الناقدة :

ـ لكي نأخذ يجب أن نعطي ..

ومضت الحياة بديعة جداً . عروس تقرأ المجلات الانجليزية والالمانية ، ذواقة للافلام ، ونجم لامع في استقبالات الأقارب والصديقات التي تنهال على بيتها ، فلم تدع له مجالاً للركود او الملل ، أجل اقتنع بأنه سيشهر إفلاسه عما قريب وأن الاحتياطي الذي وفره من هبة أمه ينفد بسرعة مذهلة وأن مرتبه هيهات أن يصمد خلال هذه الحياة المرحة الى اكثر من نصف شهر ، وان عليه أن يدبر أمره دون إبطاء لذلك ناقش الموقف معها بلباقة ثم انتهى بأن قال لها بصراحة مخففة

بضحكة لطيفة :

ـ يا عزيزتي ، هذه مشكلة لا يحلها إلا خالك .

وكان ان أعير للمؤسسة تمهيداً لنقله ، فارتفع مرتبه درجة لا بأس بها ، واعتبر ذلك خطوة موفقة خطوة ليس الا ، نحو مستقبل لا حدود له . وأعانه ذلك على تحمل طباعها الغريبة بعض الشيء ، فقد اكتشف لها طباعاً غريبة . من ذلك غرامها باستعراض نفسها أمام المرآة مبدلة فستاناً بفستان حتى سألها مرة ضاحكاً :

ـ عارضة ازياء يا حبيبتي .

ومن ذلك إفصاحها عن سرورها بطريقة صريحة دون مراعاة للسكان ، فتضحك ضحكة عالية بكل معنى الكلمة سواء كانت في سينما أم في «عمر الخيام» وطالما عانى من ذلك الحرج بعد الحرج . وأكثر من ذلك فقد رجع يوماً في موعد الغداء ـ فوجدها منهمكة في قراءة كتاب حتى أنها لم تشعر بحضوره . وقبلها كالعادة ثم تناول الكتاب فتبين له أنه مؤلف عن « السعادة الزوجية » فدهش لذلك وقرأه ملقياً نظرات سريعة على عناوين فصوله فوجم وجوماً شديداً وسألها :

ـ كيف وقع هذا الكتاب في يدك ؟

فقالت ببساطة :

ـ عن طريق إعلان في الجريدة .

فقال بامتعاض غير خاف :

ـ ولكنه فيما يبدو لي غير لائق بالمرة ..

ـ ولم ؟.. هل الحياة الزوجية غير لائقة ؟
فقال باستياء :
ـ كتاب تجاري رخيص وأكرر أنه غير لائق .
فصاحت بحدة :
ـ أنا سيدة متزوجة ومن حقي أن أقرأ ما أشاء خصوصاً إذا كان عن حياتي الزوجية .

وتساءل كيف تحتد بهذا العنف وهي المخطئة .. ورغم ذلك كله مضت والحياة بديعة وادعة . ويوماً دعته أخته بالتليفون الى بيتها وقالت له :

ـ فكرت طويلاً كيف اتصرف ، وكان من رأي زوجي ألا أتكلم ، ولكنني صممت في النهاية على مصارحتك بكل شيء ..

سألها عما عندها وهو يرمقها بنظرة توجس فقالت :
ـ لا داعي للقلق أولاً ، هذا أمر يتعلق بالماضي ، ولكن معرفتك به قد تفيدك عند اللزوم .

ووضع العذاب في عينيه وهو يستحثها على الكلام فقالت رغم انفرادهما :

ـ سميحة .. مكثت فترة من الزمن في مستشفى خاص .
هتف في فزع :
ـ مستشفى خاص .. ماذا تعنين ؟
أشارت الى رأسها في صمت فصاح :
ـ لا .. لا ..

فقالت برقة ورثاء :

ـ لا شك أنها اليوم على خير حال هذا مؤكد ، ولكن يجب أن تحسن معاملتها وأن تأخذ حذرك ، هذا ما أقصده ..

ـ من أين علمت بذلك ؟

ـ صدفة .. طبيب صديق لزوجي ..

ـ يجب أن أقابله في الحال .

ولكنها أكدت له أن في ذلك إحراجاً له ولزوجها ولا فائدة منه . وأنهال عليها بالاسئلة فقدمت له الملطف والمسكن من الأجوبة . ورغم ذلك بـدا ساعتذاك كالمريض وغادر بيت أخته بفم ممتلىء تراباً . وراح يستحضر في ذهنه حياتها كما خبرها ، حياة المرح الغريب ، والضحكات العالية ، وكتاب السعادة الزوجية ، بغم شديد وتأوه من الأعماق ، غير أنه قال لنفسه « محض أوهام ، ذلك ماض لن يعود ، ولا يخلو عاقل من نزوات مضحكة مؤسفة يجب أن أنسى ما سمعت تماماً » .

ولدى عودته إلى بيته وجدها تقرأ الفصل الاخير مـن « السعادة الزوجية » فنحت الكتاب جانباً وقالت له :

ـ لدي مفاجأة هامة لك ..

فقبلها بحنان حقيقي ثم جلس مستسلماً فقالت :

ـ سأتعلم سياقة السيارة ..

فقال بدهشة ولكن برقة :

ـ ولكننا لا نقتني سيارة ولن نقتني واحدة في القريب .

ــ ولو .. استعداداً للمستقبل ..

آه يا ربي كم هي لطيفة عندما تكف عن اقتراح المشاريع .. كيف يحسن يا ترى أن يعاملها ؟

ولما انتقلا الى مائدة الطعام قالت :

ــ وسأتعلم ضرب النار أيضاً ..

فتوقف عن قطع الخبز وهو يتساءل بانزعاج :

ــ النـــار ؟

ــ نعم ، ستدخل بهجة جديدة حياتنا ، وهي الصيد .. وسنقوم برحلات مع زميلتي احسان وزوجها الدكتور فوزي

فهتف بصبر قد نفد :

ــ لا .. لا .. إلا النار .

فضحكت ضحكتها الرنانة وقالت :

ــ مزاجك غير طبيعي .. يجب أن تقرأ كتاب السعادة الزوجيـــة ..

ــ وما علاقة ذلك بضرب النار ..

ومضت تتناول طعامها بطرف شارد وقد ارتسم الاستياء بين حاجبيها المقرونين ثم تمتمت :

ــ هكذا أنت تكره سعادتنا ، ولا هم لك إلا معاندتي .

أهذا كلام يقال لدى أول كلمة معارضة تبدر منه ؟ ورغم أن الحق واضح في جانبه .. ترى أكان مرضها من النوع العنيف .. وكيف يكون المصير لو عاودتها حال منه وهي تسوق السيارة مثلاً أو هي تلعب بالبندقية ؟ وقال لنفسه بحزن

« يجب أن أخطف من المؤسسة ما يسعني خطفه قبل أن تتحطم هذه الحياة المقلقة . ولم يعد يغمض له جفن حتى يتوكد من استغراقها في النوم . والظاهر انه طرأ عليه — بسبب مخاوفه — تغير ملحوظ — لم يفتها جانب منه ، إذ قالت له :

— لست على ما يرام ، مالك ؟

فابتسم قائلاً :

— على خير ما يرام ..

— سأشرع فوراً في تعلم السياقة وضرب النار .

فقال بتوسل :

— ابدئي يا عزيزتي بالسياقة حتى يحلها الحلال ..

ولما أتقنت هوايتها الجديدة عادت تقول له :

— أصبح لك الآن سائقة ماهرة فعليك أن تشتري سيارة

ودون تردد قال لها :

— قولي ذلك لخالك .

فضحكت ضحكتها وقالت :

— لم يفتني هذا ولكنه نصحني بالصبر وقال لي « المؤسسة ليست ملكاً خاصاً بي » ولكنني أعرفه حق المعرفة فلن يلبث أن يحقق لي طلبي ..

— اذن ما علينا إلا الانتظار ..

— بل اقترض ثمن السيارة وسوف تسترد دينك أقرب مما تتصور .

وهرب في الصمت . وذهب الى المؤسسة لفترة المساء

اليومية وعند مغادرتها حوالي السابعة رأى سميحة تنتظره في سيارة صديقتها احسان الواجن .. ووضح في صفحة وجهها ابتهاج من يفاجيء الآخر بفرحة لم تخطر له على بال .. وقالت :

ـ اقترضت سيارة إحسان وسنذهب إليهم في النادي ، اركب .

وضاق صدره بالمأزق المخيف ولكنه لم يجد بدأ من الركوب وقال لها :

ـ أنا لا أوافق على هذا التصرف .. غير معقول .. غير معقول ، وهل أتقنت السياقة حقاً ؟.

فقالت بانتصار :

ـ سترى بنفسك .

وجاءت الرحلة من وسط المدينة الى أطراف مصر الجديدة محنة بكل معنى الكلمة . اندفعت بسرعة عجيبة وشقت بين السيارات المسرعة طريقاً محفوفاً بالرعب وعند الإشارة فرملت فجأة بعد أن ظن أنها ستنفذ في السيارة المتقدمة وتوسل اليها أكثر من مرة .

ـ على مهلك ، لسنا في سباق ..

فضحكت قائلة :

ـ لكي تقتنع ، واني أتعلم ضرب النار وستحكم بنفسك ..

وقال لنفسه إنه هالك إلا بمعجزة .

وقال أيضاً إن أحلامه تتقوض وليت الحاسدين يعلمون . وقال ثالثاً إنه يجب أن يترقى بسرعة وإلا ضاعت الفرصة

إلى الابد . وفي تلك الليلة لم ينم . اجتاحه الأرق طيلة ليلته مع أفكاره السود . وقبيل الفجر هبت سميحة فجأة من نومها فجلست في الفراش. وما يدري إلاوقد ندت عن أعصابه المنهوكة صرخة . أضاءت النور وتبادلا نظرة غريبة ثم سألته :

ـ مالك ؟؟

فأجاب في خجل :

ـ لاشيء لعله حلم . .

وذهبت الى الحمام ثم عادت إلى الفراش فتفحصته هنيهة ثم استسلمت للنوم . وفي الأسبوع نفسه استقبلته ببندقية الصيد . ووعدته برحلات سعيدة في القريب . وآمن بأن حياته مهددة وبأنه يجب أن يدافع عن نفسه . وانتظر حتى خرجت لزيارة ، فعزم على التخلص من البندقية بأي ثمن ، وفعل ذلك دون تردد . ولما رجع إلى البيت وجده واقفاً على رجل . وجد سميحة تقرر الخادمتين ليقرّا بسرقة البندقية وهما لا تقران بطبيعة الحال ، وصوتها الغاضب يدوي كالمفرقعات أخذها من يدها إلى حجرتها وقال لها بهدوء :

ـ أنا وحدي المسؤول ، ولا شأن لغيري باختفاء البندقية .

وحدجته بنظرة منكرة ثم مستنكرة وصرخت :

ـ كيف تجرؤ على ذلك ؟

فقال بحزم :

ـ هذا قرار لا رجعة فيه ، لا أعيش مع بندقية تحت سقف واحد . .

أعتدت ذلك أمراً مهيناً و «جنونياً» .. وأصر هو على موقفه بكل قوة فطالبته باعادتها فقال بشيء من الرقة :

ـ لا يجوز أن نختلف بسبب شيء تافه ..

فإذا بها تصيح في وجهه :

ـ أنت .. أنت .. التافه .

وصمت ليعطيها فرصة لتراجع ولكنها تمادت في إهانته ، وما يدري إلا هو يدفعها في منكبها فأمسكت برباط عنقه ، ثم تبادلا اللطمات بلا رحمة . وبعد دقائق كانت تغادر البيت محمرة العينين . لبث وحده يفكر في يأس وكآبة حتى جاء الخال فاقتحم عليه وحدته . كان منفعلاً جداً عابساً فقـــال :

ـ ما سمعته لا يصدق بحال ..

فقال حامد محافظاً ما أمكن على الأدب حيال مديره :

ـ هذا هو رأيي .

ـ لا .. لا .. أنا لا أسمح بذلك أبداً . ثم باحتداد أشد :

ـ تعتدي عليها ؟.. هل وصل الأمر إلى هذا الحد ؟.. بعد أن لم يكن لك من الحديث الا طلب الترقيات والعلاوات .. وأعصابك ؟.. ماذا جرى لك ؟؟

قال حامد برجاء :

ـ دعنا نتحدث بهدوء ..

ـ أي هدوء .. واعتداؤك الأثيم .. خبرني ماذا في اعصابك؟

ـ أعصابي انــا ؟

ـ طبعاً .. انت ترتعب لمجرد ركوبك سيارة .. أنت تسرق بندقية صيد .. أنت تصرخ كالأطفال في الليل بلا سبب . وأخيراً تضربها كالسوقة ..

وغلبه الغيظ فهتف :

ـ لنتحدث أيضاً عما في أعصابها هي ..

ـ أنت وقح .. أجل أنت وقح ..

فسأله بعنف :

ـ والمستشفى ؟!

ـ ماذا تعني ؟

فأشار الى رأسه كما فعلت أخته من قبل :

ـ أعني المستشفى ..

وتبادلا نظرات قاتلة .. وكان حامد قد يئس تماماً فصاح :

ـ كان الواجب ألا تخفوا عني ذلك .

وصاح الرجل :

ـ ما كنت لتعدل عن الزواج بها ما دام غرضك الوحيد هو الوصول على حسابها ، أنت جبان ولا كرامة لك .

ارتجفت أطراف الرجل وجحظت عيناه وانحبس الدم في صفحة وجهه . يا له من منظر .. ترى الجنون وراثي في هذه الاسرة ؟. وأسكته الخوف. أما الرجل فصب عليه اللعنات ثم غادر البيت .

قال حامد لنفسه إن كل شيء قد انتهى ،تجربة أخفقت .

ومن حسن الحظ أنــه ما زال معــاراً للمؤسسة ولم ينقل بعد ، ولكنــه سوف يجــد نفسه من جديد عند النقطة التي انطلق منها .

نجيب محفوظ

* * *

« **أنا الموت** » قصة طريفة للاستاذ توفيق الحكيم منقولة عن كتابه « أرني الله » وهي قصة شاب ضاق ذرعاً بالحياة الحديثة وما يلابسها من تعقيد وكوارث وآمال خائبة .. وأخيراً أخذ اليأس بخناقه وفقد كل أمل في إصلاح حاله ، وباوغ آماله، فاتخذ طريقه الى البحر منتوياً الانتحار .. ولكن الله يقيض له فتاة تنقض خلفه وتنتزعه من بين براثن الأمواج الهادرة وترده – على الرغم منه – إلى الحياة .. وتحاول أن تنسيه بابتساماتها ودعاباتها ولمساتها الرقيقة مأساته التي دفعته إلى الانتحار .. ويدور بينهما طوال القصة حوار فاسفي بديع عن الحياة وما فيها من تعقيد .. لقد أراد الفتى الموت .. فقالت له الفتاة « إلي أنا .. أنا الموت » . وليست المرأة موتاً كما صرح الحكيم في قصته الرمزية .. بل هي الحياة بمشاكلها ومتاعبها .. والحياة بلا مشاكل ليست حياة .. لم يعد الفتى إذن الى الموت وإنما عاد الى حبيبته الجديدة .. إلى الحياة بكل

ما فيها .. إن اتفاقنا مع توفيق الحكيم ينصب على وجهة النظر القائلة بأنه لا يصح الهروب من الحياة .. فالهروب جبن.. وما خلقت الحياة إلا لكي نعيشها ونذلل صعبها ، ونتغلب على عقباتها ، ونحيل اليأس أملاً ، والوهن قوة ، والهزيمة نصراً ..

وبرغم أن القصة في ظاهرها رمزية إلا أن شدة وضوحها ، والتقريرية البادية في أساوبها قد طمست هذه الرمزية وخففت كثيراً من حرارة التجربة وعنفها ، وأخلت بعض الشيء ببنائها الفني هذا مع نبل الغاية التي تهدف اليها القصة ، وروعة المضمون الذي تحتويه وهذه هي القصة كاملة :

« انا الموت ... »

في سيدي بشر صخرة يحيط بها زبد البحر وحبب الموج كما تحيط قلادة اللؤلؤ بعنق جنية سمراء .. فوق قمة تلك الصخرة جلس شاب في يده كتاب ، لا يطالعه .. ولكنه يطالع الأفق اللانهائي تارة وأعماق الماء تارة أخرى . ما من شك في أنه يصغي إلى همسات تناجيه وتناديه .. أهي خارجة من بين أسطر كتابه ، ام آتية من الشفق البعيد ، أم صاعدة من الغور السحيق ؟.. إنه يسمعها من هنا ومن هناك .. إن لغتها مفهومة له .. إن مراميها معلومة لديه .. وجاءت اللحظة الحاسمة فنهض قائماً كأن شيئاً جذبه ، وألقى بنفسه في الماء .. لم يمض

قليل حتى شعر السابحون ورواد البلاج أن في البحر غريقاً. وهاج الشاطئ بمن عليه وماج .. وعلا الصياح وارتفع الضجيج وبادرت قوارب الانقاذ وهرع المجازفون من حذاق السباحة .. وبدا للناس أن تلك التدابير على غير جدوى، فهم يرون على البعد ذلك الجسد التعس ينتفض ويتخبط في لحظاته الأخيرة، ولم تعد تظهر منه إلا الأذرع المضطربة مع الأمواج. ولن يصل المنقذون إلا وقد صار في القاع .. وجعل الناس يتبعون مصير ذلك المجهول بقلوب واجفة .. وكثر البكاء عليه من كل رقيقة أو متظاهرة بالرقة .. وتمتمت الأفواه بالترحم عليه .. وقد أيقن الجميع بهلاكه ولم يبق عند أحد شك في تلفه ..

ولكن صيحة الفرح لم تلبث أن دوت في ذلك الجو العابس فالتفت الناس فإذا فتاة في «مايوه» تركب قارباً صغيراً من المطاط زاهي اللون، قد ظهرت من خلف الصخرة، تحمل أمامها فوق مطيتها جسم ذلك الشاب كأنها تحمل معطف «هو .. هو .. هالو .. هالو ..؟

فأدرك الناس أن ذلك الجسم المحمول بين أيديها لم يزل ينبض بالحياة. وهتفت الجماهير على الشاطئ للفتاة، واتجهت إليها جماعة السباحين والمنقذين يأخذون منها الغريق، ويسلمونه لرجال الاسعاف، ومشيت الفتاة مختالة بين الحشد المحيط بها المتسائل عن حقيقة الحادث. وهي تجيب قائلة انها شاهدت كل شيء من البداية حتى النهاية، فقد كانت تجذف فوق قاربها المطاط قرب الصخرة، وأبصرت الشاب وهو يهب مستوياً على قدميه

فوق القمة ، ويطرح من يده الكتاب ، ثم يلقي بنفسه في الماء . فأسرعت إليه مجدفة بكل قوتها ، حتى بلغته وقد كادت تطويه الأمواج فقبضت على ذراعه وجذبته إلى مطيتها الخشبية وهو خائر القوى فاقد الوعي .

إنه حادث انتحار إذن ؟ لماذا أراد أن ينتحر . هذا هو السؤال الذي حار على كل الشفاه ، قد يكشف التحقيق عن السر فالانتحار من الحوادث الجنائية التي يجب أن تتولى فيها التحقيق النيابة العمومية .. ولم تكن حالة المصاب الصحية على شيء من الخطر فلم يكد يسعف بالعلاج حتى أفاق .. وعاد بعد قليل إلى حياته الطبيعية ومثل بين يدي وكيل النائب العام . وكان في قاعة التحقيق تلك الفتاة شاهدة الاثبات تدلي بأقوالها . فلما فرغت .. التفت المحقق إلى الشاب قائلاً :

ـ ما هو الباعث لك على الانتحار ؟

فلم يجب الشاب ولكنه التفت الى الفتاة يتأملها من رأسها إلى كعب حذائها .. لا تأمل المعجب بحسنها بل ..

وكتم في صدره نفخة غيظ ثم قال :

ـ وما هو حق هذه الآنسة في منعي من الانتحار ؟.

فتردد النائب قليلاً ثم أراد الكلام .. ولكن الآنسة انطلقت تجيب :

ـ لو رأيت منديلي يسقط مني في الطريق أفلا تنحني وتتناوله وترده إلي .؟

إذا كان هذا من حقك ، أفلا يحق لي وقد رأيت حياتك

تسقط منك في البحر أن أنحني وأتناولها وأردها إليك ؟

فقال الشاب بقوة – لا يا سيدتي .. موضوعنا عكس ذلك بالضبط ، إن منديلك لم يسقط منك في الطريق .. بل أنت بيدك وإرادتك اسقطته عن عمد .. فلو رآك أحد وأنت تلقين به في الطريق أو في البحر ثم تطفل وتدخل ليرده إليك فهل تعتبرين هذا من حقه .؟

فقالت الفتاة متحدية :

– ولكن المنديل ..

وهنا تململ وكيل النيابة وصاح :

– دعونا من مسألة المنديل هذه .. هذا كلام لا يدون في محاضرنا .. ونحن أمام جناية شروع في انتحار .. ولقد وجهت إليك أيها الشاب سؤالاً صريحاً ما السبب الذي دفعك إلى ذلك ؟ والمطلوب الإجابة على هذا السؤال بدقة ، مع عدم الخروج عن الموضوع .. تفضل .. فقال الشاب : اكتبوا ذلك السبب التقليدي الذي نطالعه كثيراً في الصحف « لضيق ذات اليد » فقال النائب :

– أونسيت أنك قررت في المحضر عند سؤالك عن صنعتك ، أنك من ذوي الأملاك وأنك تعيش من ريع عقارات ورثتها عن أبويك ؟

– إذن قولوا ان السبب هو البله أو الخبل أو الضعف العقلي .

– أغاب عنك أنك قررت في المحضر أنك حائز على ماجستير في الفلسفة من الجامعة ؟

ـ قل لي يا حضرة النائب : ما شأنكم إذا كنت أريد أن أحيا أو أريد أن أموت ؟

ـ عجباً .. ألا تعرف أن الانتحار جريمة ؟

ـ أعرف أن الانتحار هو الرغبة في الانتقال من دار إلى دار .. ألا تقرأ في أعمدة الوفيات بالصحف كل يوم انتقل فلان من الدنيا إلى الآخرة كما ينتقل المصيف الى الاسكندرية من القاهرة .. اعتبروني إذن من المصيفين . زهدت في مصايف الدنيا كلها .. فخطر لي أن أنتقل من هذا العالم إلى عالم آخر ..

ـ هكذا بدون جواز سفر أو بدون تذكرة أو بدون ترخيص ؟

ـ حتى في هذا أيضاً لا بد من هذه الإجراءات .

ـ طبعاً وهل تظن الأمر فوضى حتى تنتقل من عالم إلى عالم من تلقاء نفسك خفية على هذا النحو ؟ إن كل مسافر خفية يعتبر مخالفاً حتى المسافر إلى العالم الآخر ..

ـ إذاً اعتبرني مخالفاً سافرت بدون ترخيص أو بدون أمر . ولكن لا حق لك أن تسألني عن سبب السفر .. فليكن لتغيير الجو أو للتهرب من الدائنين أو لملاقاة عزيز أو للتخلص من ثقيل .

ـ اسمح لي بأن أذكرك بأن سبب السفر يطلب دائماً في أحوال الانتقال النهائي والإقامة الدائمة بين بلد وبلد. فمن باب أولى إذا كان الانتقال أو الإقامة بين دنيا ودنيا .

ـ أف .. يا لعقول الناس » ويا للحرية المفقودة على هذه

الأرض » وأطرق الشاب قليلاً وجعل رأسه بين كفيه . وانتظر وكيل النيابة لحظة رأفة به واشفاقاً من الاثقال عليه إلى أن اعتدل الفتى والتفت الى المحقق بعينين تقولان أمصرّ أنت ؟ فقال النائب :

ـ نعم لا بد من الإجابة عن سؤالنا . فقال الشاب وهو يتهيأ للقيام

ـ أكتب إذن ان السبب هو مرض نفسي وهذا كل ما عندي . ولم ير المحقق بدأ من الاكتفاء بهذا الجواب وتمم اجراءاته وختم محضره وأذن للشاب والحاضرين بالانصراف ، ولم يكد الفتى يخرج الى الطريق حتى كانت الفتاة في إثره تقول :

ـ أرجو أن يكون سخطك علي قد زال .

فالتفت إليها على الفور قائلاً :

ـ لن يزول ما دمت على قيد الحياة .

ـ الى هذا الحد تراني قد أسأت إليك ؟

ـ لولا تدخلك الطائش لكنت الآن في عالم أرقى ..

ـ تدخلي الطائش ؟

ـ وداعاً يا سيدتي وداعاً .

وتركها وقفز من فوق الإفريز ليجتاز الشارع مسرعاً . وإذا سيارة نقل ضخمة قد داهمته وكادت عجلاتها تسحقه لولا جذبة من يد الفتاة جرته إلى الخلف وأعادته سالماً الى الافريز حيث كان . فرماها بنظرة نارية فهمت معناها ، وقالت بصوت يقطر حيرة وأسفاً : ـ

ــ لا تؤاخذني هذا غصب عني ..
فهز رأسه غيظاً وقال كالمخاطب لنفسه :
لا فائدة .. ما دمت أنت موجودة فلن أرى الموت بعيني ..
فقالت شبه معتذرة ..
ــ وكيف كان ينبغي أن أتصرف ؟
فانفجر حانقاً ثائراً :
ــ كفى .. كفى .. مصيبة نزلت على رأسي وانتهى الامر .
من أين طلعت لي أيتها المخلوقة ؟ تفسدين تفكيري وتدبيري ، وتعبثين بخططي وتحولين بيني وبين مصيري ! اخبريني كيف اهرب منك ؟. قولي لي كيف أهرب منك كي ألاقي الموت ؟
فلم تستطع الفتاة أن تكتم ما خامرها من ضحك .. غير انها تماسكت وتصنعت الجد وقالت :
ــ مصيبة نزلت عليك .؟ ولماذا لا تعتبرني ملاكك الحارس؟
ــ أنت ؟ لو كنت ملاكاً حارساً لاستطعت على الأقل أن أغافلك وأصنع ما أشتهي ..
ــ ماذا تشتهي ؟ أن تموت ؟
ــ نعم
فصوبت إلية الفتاة نظرة فاحصة ثم قالت :
ــ ما كنت أعرف أن للموت هواة كهواة التنس والبنج بنج والتجديف . يجب أن أعترف حقاً أني أخطأت إذ منعتك من هوايتك المفضلة . ولكن الأمر بسيط في الإمكان إصلاح الخطأ في الحال .

ـ كيف ؟

ـ ها أنت ذا موجود ، والصخرة لم تزل قائمة ، والبحر لم ينضب بعد .

ـ أألقي نفسي في البحر من جديد ؟

ـ وسأجلس أنا على القمة أطالع كتابك وأشاهدك تهوي في الماء . فلا أرفع عيني عن الصفحة حتى اتمها على مهل ، وبعد ذلك التفت إليك وأترحم عليك .. مبسوط ؟ هيا بنا .

ـ نعم هيا بنـــا .

ـ قالها بصوت فيه القوة والعزم والتحدي .. ومضى قاصداً « سيدى بشر » والفتاة الى جانبه في مثل عزمه وتحمسه وفطن إليها فجأة فاستدار قائلاً :

ـ أنا ذاهب إلى الموت .. وأنت ما شأنك ؟

ـ أسلمك إليه بيدي كما أنقذتك منه .

ـ هلمي بنا .

وبلغا « بلاج » سيدي بشر .. وأبصرا الصخرة فقالت الفتاة :

ـ عندي اقتراح دعك من حكاية الصخرة وليلبس كل منا المايوه ونسبح فوق « البلسوار » وبعد ذلك ..

ـ ولكني لا أعرف العوم .

ـ وما الضرر ما دمت تريد الغرق ؟

ـ صدقت .. وبعد ذلك ماذا ؟

ـ بعد ذلك تتزحلق وأنت من فوق « البلسوار » وتسقط

بين الأمواج في المكان الذي يروق لك.. إنها موتة «اسبور» ظريفة. ما رأيك فيها؟

فهرش رأسه قليلاً وتفكر لحظة ثم قال:

– لا يا سيدتي. لا تمتهني جلال الموت.. أنا الشاب الجاد طول عمري أأختم حياتي بموت اسبور بدل أن اختمها بموت وقور؟ يا للنساء؟ لا يضعن أصبعهن في شيء حتى ينقلب لعباً وعبثاً ولهواً. اذهبي عني أيتها المرأة؟

– لا تغضب، هلم إلى الصخرة.

ولم تمض برهة حتى كان الفتى والفتاة فوق قمة تلك الصخرة المعروفة في «سيدى بشر» كأنهما عاشقان هربا بحبهما من ضجيج المجتمع وصخب الأرض.. وهل يستطيع الناظر إليهما عن بعد أن يتوسم في أمرهما غير ذلك مهما أوتي من فراسة؟ من ذا يشاهد هذين المنفردين الجميلين وهما يتطلعان إلى البحر بنظرات حالمة ويخطر في باله تلك الصلة العجيبة التي تربط أحدهما بالآخر أو يمر بخلده تلك الفكرة المروعة التي تجول برأس كل منهما الساعة؟.

وطال صمت قطعته الفتاة بقولها:

– من واجبي أن أنصحك أن تتروى.

– لا حاجة بي إلى نصائحك.

– أنت حر.

– هس. دعيني أسمع تلك الهمسات التي تناجيني وتناديني إنها آتية من الشفق البعيد بل هي صاعدة من الغور السحيق ألا

تسمعينها ؟ فسددت إليه نظرة أرادت ان تنفذ بها إلى اعماق نفسه وقالت :

ـ همسات تناجيك وتناديك ؟ اسمع . أنا لست وكيل نيابة أمامه محضر .. وأنت شخص على أبواب الوفاة ولن أحول بينك وبين الموت كما اتفقنا .. فهل تسمح وتفضي إلي بسر انتحارك ؟ ثق اني سأحتفظ به لنفسي ولن أبوح به لأحد . قل ما سبب الانتحار ؟

فلم يجبها ولم يلتفت إليها وظل يحملق في ماء البحر ولبثت هي تنتظر أن تنفرج شفتاه عن الكلام . فلما أعياها سكوته طفقت تقول :

ـ السبب ظاهر .. طبعاً من أجل امرأة .

فاتجه إليها بوجهه ورمقها بنظرة سخرية ، ثم عاد إلى ما كان فيه من تأمل الماء دون أن ينبس بحرف .. فأردفت تقول بإصرار :

ـ لا بد أن يكون هذا هو السبب .. من أجل امرأة في حياتك أو لعدم وجود امرأة .

فاستدار يقول لها بهدوء :

ـ لماذا تجعلين للمرأة هذه الأهمية في الكون ؟.

ـ إذاً ما السر ؟

ـ يهمك ان تعرفي ؟

ـ جـــداً .

ـ اعرفي إذاً أنه لا يوجد سر كل ما في الأمر أني أريد

الخروج من الحياة. أريد أن أخرج بها بكل بساطة. ماذا في ذلك؟

ـ إنك لم تدخل الحياة بإرادتك حتى تخرج منها بإرادتك.

ـ كدت أخرج منها بإرادتي لولا فضولك وانحشارك فيما لا يعنيك.

ـ الحق معك.. هذا درس ينفعني في المستقبل.. وإن كنا أحياناً لا نقوى على منع أنفسنا من تنبيه الغافل.. هذه الحياة التي نمقتها.. انظر اليها.. أليست جميلة؟. أنت لا ترى في الأفق والبحر غير أذرع للفناء تدعوك وتناديك. ولكن الناس من حولك يرون بهجة كل شيء.. انظر إلى الأطفال والنساء والشيوخ والرجال.. في الماء وعلى الرمال كلهم مرحون ضاحكون لكأنهم يصغون إلى همسات أغنيات تتصاعد من كل شيء لتناديهم وتدعوهم إلى البقاء. فتململ الشاب ونفخ نافذ الصبر ضيق الصدر وقال:

ـ الحياة قبيحة في نظري.. أشريكتي أنت في حدقة عيني وشبكة بصري؟ رواية في السينما لم تعجبني وأردت الخروج.. هل للمتفرج في القاعة أن يمسك بيدي ويجلسني على الرغم مني ويقول لي الرواية ممتعة امكث حتى النهاية؟

فقالت الفتاة بعنف:

ـ لا أحد يمسك بيدك.. تفضل مت.

وابتعدت عنه وانتحت ناحية من الصخرة، ولبث هو لحظة في مكانه بلا حراك ثم تزحزح قليلاً واقترب منها وقال:

ـ ومن يضمن لي لو ألقيت بنفسي ألا تنقذيني ؟..

فنظرت اليه بعينين واسعتين :

ـ من يضمن لك ؟ وهل يحتاج الأمر أيضاً إلى ضمانات وتأمينات ؟ اسمح لي .. هذا كثير .. قلت لك اطمئن من جانبي ومت كما تشاء ، ولكن يظهر أن الشجاعة فارقتك .. وأنك تلجأ الآن الى التعلل والتحجج «والتمحك» فصاح قائلاً :

ـ أنا ؟.. إنك لا تعرفينني .. سترين

ـ لقد عرفتك

ـ كم الساعة عندك ؟ سأموت بعد ..

ـ وما لزوم الساعة ؟ قفزة وتصير في الأعماق .

ـ أنا حر في اختيار الوقت .

ـ أرجو أن تسرع من فضلك ولا تعطلني أكثر من ذلك

وأخرجت مرآتها الصغيرة ، وجعلت تسوي شعرها بتمهل وتأنق وعناية وتنظر الى انعكاس صورته في المرآة وهو واقف كالصنم لا يدري ما يفعل .. ثم طفقت تدندن بأغنية معروفة فقال لها بنبرة حنق :

ـ أتغنين ؟

ـ أنا في انتظارك .

لفظتها بهدوء دون أن تلتفت إليه .. فتركها في حركة عنيفة ويمم شطر البحر وصاح :

ـ الوداع .. قبل أن الفظ النفس الأخير .. أذكرك

بتعهدك .. إياك ان تحاولي .. فقاطعته قائلة بفتور :

ــ اطمئن .

فاتجه إلى البحر ومد يده وصاح :

ــ واحد .. اثنين .. ثلا ..

ولم يتم فقد انطلقت من فم الفتاة ضحكة عالية ، فأرخى ذراعيه والتفت إليها ساخطاً .. فابتدرته قائلة ووجهها في المرآة وأصبعها تمسح شفتيها :

ــ سامحني .. دهنت فمي باصبع « الروج » أكثر من اللازم .

ــ أهذا سلوك امرأة تشاهد رجلاً يحتضر ؟

ــ أنا متأسفة .. لا تغضب .. سأتم زينتي فيما بعد .. هلم امعن فيما أنت فيه . أنا الآن تحت تصرفك . تفضل .

وأخفت مرآتها واعتدلت في جلستها ولكنه أطرق إطراق اليائس .. لا من الحياة .. بل من الموت .. ثم جلس ووضع رأسه في كفيه وبدا كأنه فريسة لتفكير ممض وحيرة مضنية .. وأمسى منظره يستدر الإشفاق ويستثير الرثاء .. فدنت منه الفتاة قائلة برفق :

ــ لا تعذب نفسك .. حاول أن تعيد النظر في الرواية أعني الحياة ، فقد ترى فيها ..

فلم يدعها تكمل عبارتها .. وانقض قائلاً :

ــ لا .. لن أرى فيها غير سخيف وقبيح . أنت لا ترين ما أرى لأنك لا تفكرين برأسك .. وأغلب الناس مثلك .. أتدرين ما الحياة ، إنها مرآة .. لا كمرآتك تعكس لك وجهاً

جميلاً .. ولكنها مرآة من مرايا (اللونابارك) تعكس الحقيقة طويلة وقصيرة ومنتفخة ونحيلة .. لقد تأملت فوجدت أنه لا توجد في الحياة حقيقة ثابتة ، وما نسميه الخير والجمال والعدالة والحرية الخ .. ليست سوى أشياء لا تحتفظ بصفاتها طويلاً دون أن تتحول إلى جواهر جديدة عكسية مناقضة .. فالحرية إذا امتدت في المسافة والبعد صارت عبودية .. والعدالة تمتد الى نهايتها فتصبح هي الظلم .. والجمال في امتداده ينقلب إلى قبح .. والخير إلى شر .. حتى المواقع الجغرافية في هذه الدنيا ليست ثابتة .. فاذا امتد الشرق الى نهايته تحول فجأة إلى غرب ، وحسن القمر أو الكواكب الذي يتغنى به الشعراء ينقلب إلى هول قبيح اذا تغيرت الأبعاد . لا توجد في هذه الحياة حقائق ثابتة . كل شيء أبعاد ومسافات .. أين الحقيقة فينا في هذا «اللونابارك» .. إن مرآته تعكس لنا صوراً تختلف في الطول والقصر والبدانة والنحافة والحسن والقبح ، كلما غيرنا البعد بيننا وبين المرآة ، وكانت الحقيقة خارج «اللونابارك» بعيدة عن تلك المرآة ..

فهل أنا مخطيء اذا سعيت إلى الخروج لأبحث عن حقيقة وجودي ؟ ما قولك الآن ؟.. أما زلت مصرة على مخالفتي في الـــرأي ؟

ــ فسكتت الفتاة لحظة .. ونظرت إليه تتأمله ملياً ثم قالت :

ــ هل تشكو من إمساك مزمن .

ــ نعم كيف عرفت ذلك ؟

قالها سريعاً ولكنه لم يلبث أن فطن للمفارقة.. فتجهم وهمّ بعتابها وانتهارها، فليس هذا هو التعليق اللائق بتفكيره العميق.. ولكنها أسرعت تقول بلطف:

ـ أتدري لماذا تفكر في الانتحار؟ هذا طبيعي.. أنت تصعد في القمم.. ألا تلاحظ ان الذين يصعدون الهرم الأكبر يشعرون بدوران ويحسون أن الأرض تجذبهم وتناديهم لولا أيد تسندهم لسقطوا أو ألقوا بأنفسهم وهم لا يشعرون؟.. ولكن من المستحيل على من يمشي فوق الأرض أن يشعر بدوران المرتفعات.. أتدري ما هو العلاج ان تتعاطى بعض التفاهات.

فلم يكد الشاب يسمع منها ذلك حتى ثار.

ـ التفاهات؟.. أنا الذي اعتدت التفكير والتأمل طول العمـــر؟.

فقالت هادئة:

ـ لماذا تجعل للتفكير هذه الأهمية في الكون؟.

ـ ماذا تقولين؟

ـ اسمع:

ـ اذهب وازدرد «كوزين» ذرة مشوية على «الكورنيش» واملأ أمعائك بنصف أقة خيار اخضر بقشره..

ـ يا حفيظ.

ـ وتزوج امرأة تناكفها وتناكفك وتملأ جزءاً مـــن حياتك بالسخف والقرف والخلف.

ـ أتزوج ؟
ـ وإذا طلبت مني هذه التضحية لعلاجك فإني أقدم نفسي كأنها دواء من الاجزخانة في زجاجة عليها ورقة ..
ـ حمراء ..
ونهض من فوره مستوياً على قدميه .. ولم تشعر الفتاة الا والشاب في البحر يتخبط بين الأمواج وقد ألقى بنفسه بلا تردد قبل أن تفطن اليه . فارتبكت هي لحظة لا تدري ماذا تصنع إلى أن دفعتها غريزتها من غير وعي .. فألقت بنفسها خلفه في الماء وانتشلته وجذبته الى الصخرة واسعفته .. فثاب إلى رشده وفتح عينيه ووجد نفسه بين ذراعيها فقال مرتاعاً :
ـ انت ؟!
فقالت باسمة :
ـ الا تريد احضان الموت ؟
ـ نعم .
ـ أنا الموت .

توفيق الحكيم

* * *

والقصة القصيرة الآتية ـ قصة الشيخ صابر ـ تعالج موضوعاً انسانياً هاماً يتصل اتصالاً وثيقاً بحياتنا المعاصرة .
ولا شك أن موضوع الإيمان بالغيبيات موضوع شائك ، وخاصة في عصر العلم الذي يحاول دائماً أن يُخضع كل

مشكلة للمقاييس المحسوسة ، المقاييس المادية ، فعصرنا كطفل شرس صغير طفل متمرد مثل « مكاوي » الذي تخالجه الشكوك فيما يسمعه عن « الشيخ صابر » الغامض الأبله ويخوض مكاوي تجربة عنيفة مثيرة مع « صابر » وتنتهي نهاية مفزعة .. ويعود مكاوي والدموع على خديه الى جدته ، مخزن الذكريات وصاحبة الآراء الكثيرة والغريبة .. ويهم أن يعترف بجريمته .. لكن رأسه تدور .. لقد خاض التجربة .. ولم يصل إلى ما كان ينشده برغم فشل صابر وبرغم وضوح كل شيء .. لكنه وضوح مزعج يثير خلفه زوبعة من الغبار .. والضباب فيهتف مجيباً : « أنا .. أنا لا شيء » أجل .. إنه لا شيء أمام أسرار الكون الكبيرة الضخمة ، تلك الأسرار التي لم ولن يستطيع العلماء مهما اوتوا من الثقافة والعلم أن يفكوا طلاسمها بأسرها .

إن من ينكر عالم الغيب وما يكنه من غيبيات وآثار عميقة لا يعد منصفاً فحسب بل هو في نفس الوقت مجافياً لبعض أصول العقيدة السماوية وقدرة الله فوق الشك والتهم . وعلمه أكبر من أن يحيط به بشر ..

وليست هذه المشكلة التي تعالجها قصة الشيخ صابر مشكلة تجريدية ، لأن كل ما يتصل بمعتقداتنا له عميق الأثر في تصرفاتنا وسلوكنا البشري ، والأدب الإسلامي مطالب بأن يعالج هذه المشاكل ويتعرض لها ، ويلقي الاضواء عليها ..

« الشيخ صابر »

بقلم « نجيب الكيلاني »

كان الشيخ صابر لغزاً محيراً ، يحيط به كثير من الغموض ويظله جو من الأسرار التي تثير التساؤل . ولم يكن الشيخ صابر كهلاً ذا لحية كثة ، ولم يكن يلبث ثوباً مرقعاً بألوان الطيف ، بل كان مجرد طفل صغير لا يتجاوز التاسعة من عمره ، ذي بشرة سوداء كليل غاب قمره ، وذي بلاهة واضحة ملفتة للأنظار ، وكان صامتاً لا يتكلم ، يمضي في طريقه لا يعير أحداً التفاتاً ، وكأن أمر الناس جميعهم لا يعنيه في كثير أو قليل .. أجل كان لغزاً محيراً بالنسبة لأقرانه من الأطفال الذين يذهبون صباح كل يوم إلى مكتب « الشيخ درويش » لتحفيظ القرآن ، وفي هذا المكتب حيث يجتمع الأطفال ، كان يدور ذكر الشيخ صابر على ألسنتهم ، ترى ابن مَنْ يكون ؟.

وأين يسكن ومن أي حي من أحياء الجيزة يأتي ؟ وهل صحيح ما اشتهر عنه من كرامات وخوارق ؟ وفي المكتب ، وفي غفلة من فقيهه كان الأطفال يتهامسون ذات يوم ، وقال طفل شرس يدعى « مكاوي »

— تصوروا يا أولاد ان الشيخ صابر يمشي فوق سطح الماء .

فرد طفل آخر :

ــ أيمشي على سطح الماء ولا يغرق في النهر ؟ كيف ؟
فقال مكاوي وعيناه تبرقان بريقاً شيطانياً مخيفاً :
ــ هذا ما يحيرني .. إنه يأتي من وراء النهر .. من مكان ما غربي الجيزة .. فإذا ما رأى الطريق مغلقاً عند مرور القطار على الكوبري .. سرعان ما ينحرف عنا ويدع الناس متكدسين في انتظار فتح الإشارة ثم يثب الى الماء في خفة ، ويخطو فوق سطح الماء وكأنه يمشي على بساط من الحرير ..
ــ « يا قوة الله » ...
وعاد مكاوي الى الحديث مرة اخرى :
ــ سألت جدتي . فقالت إن صابر لا بد وأن يكون من أهل الخطوة .. من أولياء الله الصالحين .. وشرد مكاوي بضع لحظات .. كان يحملق في لا شيء ، وبساط من الحرير يمتد في خياله ، وصورة الشيخ صابر تتراءى له متوجة بالسحاب الأبيض .. والورود .. وأجنحة ملائكية ترفرف من حوله . وعلامة استفهام كبيرة تحتل عقله الصغير وتحوله إلى جمرة متقدة صامتة من التساؤل المحير . أكان عقله الصغير يبحث عن الحقيقة ؟ أيؤمن بما يسمع أم لا يؤمن ؟ لقد حاول مكاوي ذات مرة أن يقلد الشيخ صابر فجرى صوب الشاطىء ، ثم خطا إلى ماء الترعة الكبيرة .. كان يريد أن يجرب بنفسه هل يمكنه أن يسير فوق سطح الماء كما يفعل صابر ؟ ودق قلبه في عنف عندما لامست قدماه الماء ، وكان يخاف البحر .. فقد ارتبط في ذهنه بالجنيات الساحرات اللاتي يجررن الضحايا

إلى الأعماق السوداء المجهولة حيث الظلام وعوالم الجن .. تلك العوالم التي لا يعرف عنها أحد شيئاً مفصلاً مقنعاً .. وكم كانت خيبة مكاوي كبيرة عندما غاصت ساقاه ... وبلغت الطين اللزج البارد .. وأوشك أن يجرفه التيار فيقضي غريقاً .. لولا صرخات المارة التي أخذت تنصب في أذنيه محذرة ... ولولا الأيدي التي تسابقت لإنقاذه من موت محقق .. لماذا ؟ لماذا فشل هو بينما ينجح صابر ؟ وبماذا يتميز صابر عنه ؟ إن مكاوي يحفظ بعض صور القرآن القصيرة ، وصابر لم يذهب إلى المكتب طول حياته .. ولم يحفظ كلمة واحدة من كلام الله وصابر شارد .. ذاهل عن الدنيا وما فيها .. يلبس ثوباً ممزقاً متسخاً .. ويمشي كالعبيط حافي القدمين ، أما مكاوي .. فعاقل .. نظيف .. أبيض البشرة .. يلبس حذاء لامعاً .. ثم عاد مكاوي بذهنه إلى مجاذيب الحسين والسيدة زينب .. هؤلاء الذين يلبسون العمائم الخضراء .. والأحزمة الحمراء .. ويترنمون بأغنيات غريبة .. ويمدحون النبي .. لحاهم البيضاء تقطر جاذبية وحناناً وحباً .. والناس – بعض الناس – يتسابقون إلى تقبيل أياديهم .. إن هؤلاء الدراويش أو الأولياء يشبهون الشيخ صابر بعض الشبه ، إنهم مثله بلهاء صامتون . يسيرون فوق سطح الماء وكأنهم يسيرون على بساط حريري ناعم . ولم يفق مكاوي من أحلامه .. بل أخذ يتذكر تلك الرؤى التي كان يراها في منامه .. كان يرى نفسه سائراً فوق سطح الماء .. والرفاق على الشاطيء الآخر ينظرون إليه مذهولين ..

لكنه في تلك الرؤى كان قبل أن يصل الى الشاطىء الآخر يحس أن ساقيه تغوصان .. وأنه يوشك أن يغرق .. فيصرخ .. ويستغيث .. والرفاق على الشاطىء يقهقهون ساخرين شامتين .. فيظل يصرخ ويصرخ طالباً النجدة ...

ولا تنقذه من أحلامه المرعبة سوى يد جدته الحانية وهي تهزه في سريره « مالك يا حبيبي » ؟ .. لماذا تصرخ يا مكاوي ؟ بسم الله الرحمن الرحيم .. رقيتك ممن رأوك ولم يصلوا على الحبيب النبي .. ويفق مكاوي من أحلامه والدموع تترقرق في عينيه .. وصورة الشيخ صابر الوافد من بعيد .. والنهر .. والشبح الأسود الذي يخطو فوق سطح الماء تملأ خياله ، وتزيد من حيرته وآلامه

والتفت مكاوي إلى أصدقائه في المكتب وقال :

ـ يا أولاد .. هل فيكم أحد رأى صابر وهو يمشي فوق سطح الماء ..

فردوا جميعاً :

ـ كل الناس رأوه ..

فضرب مكاوي كفاً بكف وقال :

ـ هذا ما يحيرني .. إن جدتي هي الأخرى حدثتني عن امرأة من أولياء الله الصالحين كانت منقطعة لعبادة الله في الخلاء .. وكانت إذا ارادت أن تعبر النهر فما عليها إلا أن تبسط منديلاً فوق الماء ثم تجلس عليه وتتمتم « قدوس .. قدوس .. قدوس » وسرعان ما تبلغ الشاطىء الآخر .. »

ورد عليه طفل خبيث : « جدتك كذابة .. »
فلم يجب عليه مكاوي بغير صفعة قوية ، فوق وجهه ، فأثار الضجيج والهرج مما لفت نظر فقيه المكتب الذي غادر مكانه وعصاه في يمناه ، كي يعطيهم درساً في الأدب ، وما أن انتهى اليوم الدراسي حتى هرع الأطفال فرحين ، وتنفس مكاوي الهواء المنعش في تلذذ ، وما زالت صورة صابر عالقة في ذهنه ، ترى لماذا ثار عند اتهام جدته بالكذب ؟ إن ما تقوله لا يختلف كثيراً عما يقوله الأطفال عن صابر ، فلماذا يصدق جدته ، وتساوره الشكوك في كرامات صابر ، والأمر متشابه ؟ واعترف مكاوي بينه وبين نفسه بأن حديث الأطفال وحديث جدته كلاهما في حاجة إلى تحقيق .. إلى برهان أكيد ساطع يشرق على المعميات التي تراوده ويكشف عن غموضها . إنه يشعر بالحاجة إلى أن يلمس الحقائق بيديه أو يراها بعينه رأي العيان . وبدا مكاوي الصغير نموذجاً لعصره .. للأفكار الجديدة التي تغزو مجتمعه ، كان مكاوي يشعر بذلك .. لكنه لم يكن قادراً على التفلسف أو مناقشة الغيبيات كما يفعل الكبار لكنه في بساطة عجيبة أراد أن يرى الكرامة الخارقة .. المعجزة .. بنفسه لا من خلال شائعات الأطفال ولا حتى من خلال أساطير جدته .. لا شيء يحل المشكلة سوى أن يرى صابر النحيف الأسمر ذا القدمين الحافيتين ، يسير فوق سطح الماء وكأنه يدرج على بساط من حرير .. وأفاق مكاوي من أحلامه المتمردة على صفير عال مزعج ورمى ببصره إلى بعيد .. كان

القطار الأسود يقترب بوجهه الداكن المخيف الخانق ، ينفث دخانه القاتم نحو السماء .. وبدا له أن القطار يستطيع أن يسحق كل شيء حتى فقيه المكتب .. وحتى صابر لو وقف في طريقه لمزقته العجلات شر ممزق فالقطار غول أحمق لا يرحم ولا يعترف بكرامات الأولياء .. وربما هذا هو السبب في أن صابر يلجأ الى النهر يسير فوق سطحه ، متجنباً السير فوق القضبان والتعرض للعجلات الحديدية القاسية التي لا ترحم .. وتجمهر الناس في انتظار فتح الاشارة بعد مرور القطار ...

ووقف مكاوي يتفحصهم .. لماذا لا يعبرون النهر مثلما يفعل الشيخ صابر ؟؟

لكنه توقف عن مناقشة هذا الأمر .. أذهلته مفاجأة كبرى ..

إن الشيخ صابر هو الآخر يقف بعوده الأسمر النحيل مع الناس ينتظر فتح الإشارة . هل هذا معقول ؟؟ لماذا لا يعبر النهر بطريقته المعروفة ؟؟ هذا الأبله يريد أن يحرمني من المتعة التي ارتقبها منذ زمن بعيد ؟. وتخيل مكاوي الشيخ صابر وهو يسير في تؤدة وصمت وعدم اكتراث فوق سطح الماء . وعشرات العيون ترمقه من خلف الحواجز القائمة التي تسد الطريق .. لقد حانت التجربة .. غير أن الشيخ صابر لم يتحرك .. بل ظل واقفاً ضمن الناس وكأنه واحد منهم لا يتميز عنهم بخوارق أوكرامات . أهو تواضع ؟ يا للخبيث المعاند ؟..

وتلفت مكاوي حوله فرأى أصدقاوْه الأطفال يقفون مع

الناس .. وهتف مكاوي وفي عينيه بريق عجيب .
— يا أولاد .. ها هو صابر ..

وجرى الجميع صوب صابر .. وتزاحمت الكلمات تنصب في أذني الشيخ الصغير ، وتسابقت الأيدي تعابثه أو تداعبه ، وبعضهم أخذ يطلب منهم في إلحاح أن يدعو لـــه بالنجاح .. إن من دعا له الشيخ صابر لا بد أن ينجح وأن يفلت من غضب الفقيه ومن نقمة الله أيضاً .. وصاح طفل ، دعوه يا أولاد .. إن من يؤذي الشيخ صابر يدخل النار ..

وصرخ فيهم مكاوي وهو محتقن الوجه :
— هُسْ انت وهو ...

والتفت الاطفال نحوه . فرأوه يشق طريقه إلى صابر بذراعيه الصغيرتين في قسوة ، وما أن بلغ صابر ، حتى مد يده وقبض على زنده العاري الأسمر بأصابع مرتجفة ، وحاول أن يجذبـــه إلى بعيد ، لكن صابر لم يحاول أن يلتفت إليه . وبدا عليه أنه لا يكترث به ، واكتفى بأن انتزع زنده من يد مكاوي وابتعد قليلاً .. غير أن مكاوي تشبث بزنده ، وأخذ يجره .. وصابر يقاوم في ضعف .. ويتقهقر مع جذبات مكاوي العنيدة وقبضته المتشنجة التي يأبى أن تلين .. ومكاوي ممسك بتلابيبه والإشارة قد بعثت ضوءها الاخضر ولم يعد يسمع للقطار صفير .. وانفض الناس بعد أن فُتحت السدود . وبقي صابر والأطفال على الشاطىء وهمس مكاوي والشحوب يغلف وجهه : —

ـ « انزل يا صابر .. انزل إلى الماء .. نريد أن نرى كيف يسير فوق سطحه دون أن يغرق » وحاول أن يدفعه إلى الماء لكن صابر تقهقر وتشبث بثياب الأطفال الواقفين إلى جواره .

وصرخ مكاوي :

ـ قلت لك إنزل وإلا أنزلتك أنا ..

كان صابر يتراجع ، ومكاوي يدفعه . ولعل صابر شعر بما بدا على مكاوي من إصرار مجنون فبكى وهطلت دموعه ، وند عنه أنين خافت حزين ، وانبعث من عينيه الذاهلتين نداءات الضراعة والتوسل .

وصرخ مكاوي ثانية :

ـ انزل .. لا بد أن أراك .. أراك بنفسي وأنت تسير على الماء ..

وشده الأطفال وهم يرون مكاوي يستجمع كل قواه .. ويدفع صابر إلى النهر دفعة شديدة ، وفي لحظات كان صابر وسط الماء يصارع التيار بذراعيه الهزيلتين ، ويختفي تحت السطح ، ثم يطفو من جديد وأصابعه الرقيقة السمراء تمتد في ضراعة ، بينما وقف مكاوي كالمسحور على الشاطيء ينظر إلى المأساة التي صنعها مذهولاً وتمتم وكأنه في حلم مقبض .

ـ « لكنه يغرق .. صابر يغرق .. صابر يموت .. »

وأفاق على المأساة المجسمة وصدمته كلمة « يموت » وصرخ مكاوي بصوت متحشرج حزين :

ـ يا صابر قل « قدوس .. قدوس » وستصل إلى الشاطيء

الآخر بسلام .. هكذا قالت جدتي عن ...

واختفى صابر ، ولم يعد يطفو ، وسكن الماء أو كاد ، ومزقت السكون أصوات استغاثة . وتجمهر على الشاطىء عدد من الرجال والنساء والأطفال أما مكاوي ورفاقه فقد لاذوا بالفرار ، وابتلعتهم الأزقة والحواري والجموع التي تتدفق من كل ناحية .. وكان مكاوي وهو يجري تلتقط اذناه كلمة « غريق .. غريق .. يا ضنى املك يا حبيبي .. العيال الانجاس اغرقوه ... » وظل مكاوي يجري .. ويجري متقطع الأنفاس .. حتى بلغ حجرة جدته فألقى برأسه فيه .. وانفجر باكياً بكاء مراً وهو يتمتم :

ـ « الشيخ صابر مات .. مات يا جدتي .. ولم يستطع أن يبلغ الشاطىء .. ليته قال كلمة « قدوس » .. لكن فمه امتلأ بالماء .. وغاص بعيداً .. أحضان الطين .. مات صابر يـــا جدتي .. » فربتت جدته على رأسه في دهشة وقالت مواسية :

ـ كلنا سنموت يا ولدي

ـ « لكن أنا الذي .. » وهتفت جدته في قلق وهي تقاطعه : « أنت ؟؟ ماذا ؟؟ »

وتنهد في أسى وقـــال وأمارات الخوف تنعكس على ملامحـــه :

ـ أنا ... أنا ... لا شيء ...

نجيب الكيلاني

وكنموذج للمسرحية نقدم تلك المسرحية القصيرة للأستاذ علي أحمد باكثير وهي مسرحية «إمام عظيم» والأستاذ باكثير معروف بقصصه ومسرحياته التاريخية، ويبدو في كتاباته مدى ما يكنه للتاريخ الإسلامي والعربي من تقدير وإجلال، كما يبدو إيمانه الشديد بأعلامه الأفذاذ وإيجابيتهم والدور الخطير الذي قاموا به في مجالات الاصلاح الديني والاجتماعي والسياسي ..

أما الإمام العظيم فهو أحمد بن حنبل فقيه الإسلام الأكبر، وواحد من أربعة شيدوا أسس المذاهب الأربعة المشهورة في الفقه الاسلامي، وقد ضُرِبَ به المثل في استمساكه بالحق، ونضاله عن عقيدته، لم يثنه عن ذلك اضطهاد، أو يصرفه عنه تهديد أو وعيد، وكان أشد المآزق حرجاً في حياته هو اعتقاده بأن القرآن مخلوق «مخالفاً بذلك رأي الخليفة المعتصم والواثق والمأمون» فكان أن رموه بالمروق والكفر، وحاولوا صرفه عن رأيه بشتى الوسائل، فلم يكن هذا بقادر على أن يحوله عما اعتقد أنه حق، وظل أحمد بن حنبل رافعاً رأسه، منافحاً عن حرية الرأي، لا يحيد أو يميل، ولم يستطع ابن أبي دؤاد أن يسحق حرية الكلمة، أو يطفىء الشعلة القاهرة التي أمدها ابن حنبل بطاقته وروحه وكيانه.

وعندما تحقق له النصر، لم يكن ليفكر في الانتقام من أحد حتى اولئك الذين شهروا به أو الهبوا جسده بالسياط، أو قذفوا به في أعماق السجن، وحاربوه في أرزاقه ونشر

رسالته العلمية والثقافية .
وفي هذه المسرحية القصيرة يصور لنا الأستاذ باكثير فصلا من النهاية .. فترة الانتصار الرائع بالنسبة لأحمد بن حنبل ، ولحظة الهزيمة المذهلة التي ابتلي بها ابن ابي دؤاد ، وصورة فاضلة لخليفة من الخلفاء انصاع للحق ، وفتح فابه للنور ، ومنظر الدموع المترقرقة في عيون الرجال ، وهم يستمعون الى كلمات فاضلة من رجل فاضل . يهتف في صدق وحرارة « يا أبا عبدالله .. السفر قريب ، والطريق طويل، والزادقليل .. »
وهذه هي المسرحية..

* * *

امام عظيم

تمثيلية قصيرة للاستاذ : علي احمد باكثير

المنظر : مجلس الخليفة المتوكل .. وعنده خواص اصحابه
(يدخل الحاجب يعقوب قوصره)
المتوكل : ما وراءك يا يعقوب
هذا أحمد بن أبي دؤاد يا أمير المؤمنين . قد جاؤوا بـه محمولاً إليك كما أمرت .
المتوكل : فليدخلوا بالمخذول هنا
يعقوب : سمعاً يا أمير المؤمنين .

(يخرج يعقوب ثم يعود بابن أبي دوأد ،
يحمله أثنان من الشرطة . فتتوجه الأبصار إليه)

المتوكل : ضعوه على الأرض . وأسندوه الى ذلك الجدار .

(يوضع ابن ابي دوأد على الأرض ، ويسند
الى جدار في أحد الأركان وهو مريض بالفالج
لا يستطيع الحركـــة) .

ابن ابي دوأد : السلام عليك يا أمير المؤمنين .

المتوكل : وعلى غيرك السلام . هيه يا ابن أبي دوأد . هل لك ان تحدثنا عما فعلتموه بأحمد بن حنبل ؟

ابن ابي دوأد : ما أخال أمير المؤمنين يجهل ذلك .

المتوكل : أحقاً جيء له بالجلادين فضربوه حتى غشي عليه ؟

ابن ابي دوأد : نعم يا أمير المؤمنين .

المتوكل : هل تعتقد أنه كان يستحق كل هذا العذاب ؟

ابن ابي دوأد : ....

المتوكل : ماذا كانت جريرته ؟

ابن ابي دوأد : أبَى يا أمير المؤمنين أن يقول : إن القرآن مخلوق .

المتوكل : أكنت ترى أنه يكيد للدين ويبغي به شراً ؟

ابن أبي دوأد : لا يا أمير المؤمنين. ولكنه أخطأ .

المتوكل : وكيف علمت أنه أخطأ ! أأنت أعلم بالدين وأفقه للسنة من هذا الإمام الكبير ؟

ابن ابي دوأد : يا أمير المؤمنين . ما كنت أنا وحدي في

هذا السبيل . لقد كنت مع أبيك المعتصم أمير المؤمنين في ذلك .
المتوكل : أفكان المعتصم أفقه وأعلم من أحمد بن حنبل ؟
ابن ابي دؤاد : وكان على ذلك أيضاً عمك المأمون أمير المؤمنين .
المتوكل : ويلك ، ألأن المأمون قد شدا شيئاً من فلسفة يونان يكون أعلم بكتاب الله وسنة رسوله من ابن حنبل .
ابن ابي دؤاد : كانت سياسة الدولة يا أمير المؤمتين تقتضي ذلك .
المتوكل : أي دولة تعني ؟ دولتنا أم دولة خصومنا العلويين .
ابن ابي دؤاد : بل دولتكم يا آل عباس .
المتوكل : أفلم يكن المأمون من الساعين في هدمها ، ألم يرد أن ينزعها من أيدينا ليجعلها لابن أبي طالب .
ابن أبي دؤاد : إنك تعلم يا أمير المؤمنين ألا يد لي في تلك السياسة
المتوكل : فإني لن أعقابك عليها . ولكني سأعاقبك على ما ظلمت هذا الامام الجليل وعرضته للعذاب طوال حكم المأمون عمي ، والمعتصم أبي ، والواثق أخي .
ابن ابي دؤاد : انه كان يتشيع لآل علي يا أمير المؤمنين .
المتوكل : قد فتشوا داره فلم يجدوا فيها أحداً من أعدائنا العلويين ، كما ادعيت عليه زوراً منك وبهتاناً
ابن أبي دؤاد : لعله كان قد سر به وهرّبه يا أمير المؤمنين .
المتوكل : كذبت أيها المجرم الأثيم . والله لأستصفين ما

بقي من أموالك حتّى لا يبقى عندك دانق واحد .

ابن أبي دوأد : حنانيك يا أمير المؤمنين . ابق شيئاً لأهلي وأولادي . أما كفى ما أخذت من مالي حتى أصابني هذا الفالج ، عافاك الله .

المتوكل : تلك عقوبة الله . وبقي أن تذوق عقوبتي .

ابن ابي دوأد : يا أمير المؤمنين ليس من العدل أن تعاقبني وحدي فيما حل بابن حنبل .

المتوكل : ويلك أأنبش قبور شركائك : المأمون والمعتصم والواثق . وهذا ما تريد مني يا لكع ؟

ابن ابي دوأد : معاذ الله يا أمير المؤمنين ، ولكني أطمع في عفوك أنت . كما أطمع لهم في عفو الله وغفرانه .

(يدخل يعقوب)

يعقوب: يا امير المؤمنين . هذا احمد بن حنبل قد وصل .

المتوكل : أهلاً به . فليدخل .

(يخرج يعقوب)

المتوكل : أتقبل يا هذا أن أحكم احمد بن حنبل في أمرك ليقضي عليك بما يشاء ؟

ابن ابي دوأد : يا أمير المؤمنين أنت أرحم وأعدل من أن تكل أمري إلى خصمي .

المتوكل : ألا تريد أن تحتكم إليه .

ابن ابي دوأد : إليك وحدك أحتكم يا أمير المؤمنين .

المتوكل : فابق حيث أنت ولا تنطق بكلمة حتّى يؤذن لك .

(يدخل الإمام أحمد بن حنبل فيقوم لــه الخليفة وجلساؤه إعظاماً ، ثم يجلسه المتوكل إلى جانبه)

المتوكل : مرحباً بك يا أبا عبدالله . أنت عندنا على الرحب والسعة .

احمد : أصلحك الله يا أمير المؤمنين . ها أنذا قد حضرت اليوم إلى قصرك امتثالاً لأمرك . فماذا يريد أمير المؤمنين مني ؟

المتوكل : عندي لك عتب يا أبا عبدالله ، أريد أن أسمعك إيــاه .

احمد : فيم العتب يا أمير المؤمنين ؟

المتوكل : أنت تكره أن تغشى مجلسي يا أبا عبدالله .

احمد : إنما أكره أن أجيئك لغير حاجة يا أمير المؤمنين حتى لا أشغلك عن ذوي الحاجات من رعيتك .

المتوكل : بل كرهت الرحلة الينا من بغداد .

احمد : إنما اشفقت من مشقة الرحلة يا أمير المؤمنين فإني كما ترى شيخ هرم .

المتوكل : قبحاً لهم . لقد بلغوني أنك تكره لقائي وتتنصل ، وإلا لأعفيتك من هذه المشقة .

أحمد : هذا يا أمير المؤمنين مثل الذي بلغك عن داري . اني آوي فيها أحد أعدائك .

المتوكل : أجل .. سامحني يا أبا عبدالله . إذ أمرت بتفتيش دارك .

احمد : قد سامحتك يا أمير المؤمنين من قبل .

المتوكل : والهدية التي أرسلتها إليك بلغني أنك استنكفت منها ففرقتها على الفقراء والمساكين .

احمد : يا أمير المؤمنين لقد وجدت هؤلاء أحوج مني إليها فتصدقت بها عليهم . ما قصدت ان أغضبك .

المتوكل : فقد أغضبني ذلك يا أبا عبدالله منك .

أحمد : (ممازحاً) ماذا تركت لصالح ابني يا أمير المؤمنين ؟ لقد كان له عذره حين غضب . أما أنت فلا عذر لـــك .

المتوكل : (يبتسم ضاحكاً) صدقت يا أبا عبدالله ، والله لا أسمع فيك مقالة واشٍ بعد اليوم .

احمد : حياك الله يا أمير المؤمنين وبياك .

المتوكل : إنك سامحتني فيما كان مني في حقك ، فهل لك أن تسامح المعتصم ابي وتجعله في حل .

احمد : قد فعلت يا أمير المؤمنين .

المتوكل : (فرحاً) أحقاً يا أبا عبد الله ما بقي في قلبك من شر عليه ..

احمد : ولا على أحد ممن آذاني . فقد جعلتهم جميعاً في حـــل .

المتوكل : حتى هذا المجرم اللعين . (يشير إلى ابن أبي دؤاد) .

احمد : (ينظر الى حيث أشار المتوكل) ومن يكون هذا

يا أمير المؤمنين .
المتوكل : ألا تذكره ؟ هذا عدوك أحمد بن أبي دؤاد .
احمد : ما هو لي بعدو يا أمير المؤمنين . لقد سامحته وعفوت عنه .
المتوكل : يعقوب .
يعقوب : لبيك يا أمير المؤمنين .
المتوكل : احملوا هذا المخذول إلى أهلـــه .
ابن ابي دؤاد : (يحمله الشرطيان ليخرجا به) يا أمير المؤمنين حكّم أبا عبدالله في أمري .
المتوكل : هيهات قد رفضت ذلك من قبل فليس لك غير حكمي أنـــا .
ابن ابي دؤاد : حنانيك يا أمير المؤمنين . اجعل حكمي إليـــه .

(يخرجان به وهو يصيح ويستغيث)
احمد : ما خطبه يا أمير المؤمنين .. ما خطب ابن أبي دؤاد ؟
المتوكل : كنت أردت أن انتقم منه لك ، ولكنك عفوت فأمرتهم أن يعيدوه الى اهله .
احمد : أكرمك الله يا أمير المؤمنين إن الله تبارك وتعالى يقول « فمن عفا واصلح فأجره على الله . »
المتوكل : هذا الذي عذبك يا ابا عبدالله واضطهدك . هذا الذي دفع أبي وعمي وأخي إلى عذابك .
احمد : (يرفع يديه مبتهلاً) اللهم اغفر لابن أبي دؤاد ..

اللهم تب عليه .
المتوكل : وتدعو له يا ابا عبدالله ؟ تدعو للعصاة المجرمين ؟
أحمد : (ماضياً في دعائه) اللهم إن قبلت عن عصاة أمة محمد صلى الله عايه وسلم فداء فاجعلني لهم فداء (يستولي على الحاضرين خشوع عميق . وتندى عيونهم بالدمع ، ويسود بينهم الصمت برهة) .
المتوكل : (والدمع في عينه) إنّا عبدالله ، لا غنى لنا عن صحبتك . أفلا تقيم عندنا في (سرمن رأى) إلى ما شاء الله .
احمد : لو اعفيتني يا أمير المؤمنين وأذنت لي في العودة إلى داري ببغداد كنت لك من الشاكرين .
المتوكل : أترغب عن جواري يا أبا عبدالله ، أم تشكو من تقصير في حقك ؟
احمد : سأصدقك القول يا أمير المؤمنين . اني لا أحب لك أن تكون أقسى عليّ من المعتصم أبيك .
المتوكل : كيف يا أبا عبدالله ؟
احمد : سامني أبوك فتنة الدين أمس ، وأنت اليوم تسومني فتنة الدنيا بما يُغدق عليّ وعلى أهلي من عطاياك . وقد نجوت من الأولى يا أمير المؤمنين وأخشى ألا أنجو من الثانية .
المتوكل : قد فهمت قصدك يا أبا عبدالله . ولك عندنا ما تحب .
أحمد : (فرحاً) أبقاك الله يا أمير المومنين .. ووفقك

لكل خـــير .

المتوكل : عظني يا أبا عبدالله قبل أن ترحل عني .. عظني موعظة أحفظها عنك ما حييت ..

احمد : يا عبدالله .. السفر قريب ، والطريق طويل ، والـــزاد قليل .

المتوكل : (يتمتم باكياً) يا عبدالله .. السفر قريب والطريق طويل .. والزاد قليل .

« ستار »

• • •

في هذه النماذج التي سنقدمها قصيدة « مع الغرباء » التي كتبها شاعر فلسطين هارون هاشم رشيد ، فيها عديد من العناصر الفنية من حيث الشكل والمضمون ، وتتفق تماماً مع ما نسميه بالإسلامية ..

فالشاعر من أبناء البلد المنكوب الذي تشرد بنوه ، رأى بعيني رأسه مأساة وطنه البشعة ، ورأى حشود الأطفال والنساء والشيوخ وهم هائمون على وجوههم أمام العسف الصهيوني تؤازره قوى الاستعمار الطاغي ، لهذا توفرت لدى شاعرنا مرارة التجربة ، وعمق الأحاسيس وروعة الصدق ، ومن ثم بدت كلماته التي ينظمها في القصيد وكأنها دموع مسطورة .. دموع ثائرة .. هادرة .. ورغم ما تشيعه من ألم وحسرة إلا

أن نغمة الإصرار والأمل تشيع في أجوائها ، فلا يأس برغم الاسى الضافي ، ولا استسلام مع قسوة الهزيمة وبشاعتها ..

ولم يتجه شاعرنا إلى النغمة الخطابية الجوفاء ، بل تحدث الينا كشاعر .. كشاعر يؤمن بقضية بلده العادلة ، ويستعيد ذكرياته الحلوة .. ذكريات المجد .. والحب .. والسلام والزهور والطفولة البريئـــة :

أما كانت لنا أرض   بها الآمال تخضرّ ؟
وفيها ترقص البشرى   ويشدو فوقها الطيرُ ؟
أما كان لنــا وطن   يسبــّح باسمه الزمنُ ؟
لماذا نحن يا أبتِ   لماذا نحن أغــرابُ ؟

هذه الصورة المثيرة الرائعة ، كيف تحولت إلى النقيض ، فأصبح صاحب الدار غريباً ، وتبددت الآمال والأحلام وتناثر عقد الألفة والحب والسعادة :

لماذا نحـــن في الخيمة في الحر وفي البرد
ألا نرجــع للبيت   وللحقل وللمجـــدِ ؟
لماذا نحن في الألمِ   وفي الجوع وفي السقمِ ؟
وفي البؤس وفي النقمِ   لماذا نحن يا أبت ..
لماذا نحنُ أغرابٌ ؟

مثل هذه الصورة المتناقضة البارعة ، صورة الأمس بروعته ، وصورة الحاضر بشقوته ، تفتح الآفاق أمام أجيالنا الحاضرة

والمقبلة كي تنطلق .. كي تثور وتفعل المستحيل لترد الوطن السليب ، وتداوي جراحه النازفة ، أي قارىء لهذه الكلمات النارية ولا يثور أو يتمرد؟

«أبي قل لي بحق الله هل نأتي الى يافـا ؟
«فإن خيالها المحبوب في عيـني قد طافـا
أندخلهـا أعـزاء بـرغم الدهر أشرافا ؟

ويمتد خيال شاعرنا من آلام الأمس وأحزانه ، إلى لوعة الحاضر وأشجانه ، إلى المستقبل الباسم وما يحتضنه من آمال شجية ، وإصرار عتيد ، وثقة لا تتزعزع .

فيصرخ : سوف نرجعـه
سنرجع ذلك الوطنـا
فلن نرضى له بدلا
ولن نرضى لـه ثمنـا
ولـن يقتلنـا جـوع
ولـن يرهقنـا فقـرُ
لنـا أمـل سيدفعنـا
إذا مـا لوّح الثـأرُ
وصبراً يا ابنتي صـبرا
غـداة غدٍ لنـا النصـرُ

* * *

مثل هذا اللون من الفن ينزع في هدفه النزعة الإنسانية ، ويجعل من الجهاد والنضال من أجل الحق جزء من العقيدة الكبرى ، ومن ثم يتمشى تماماً مع منطق الإسلام ، بل يفسح له الإسلام في قلبه مكاناً رحباً ..

وعلى هذا النمط قصيدتنا عن فلسطين (صيحة لاجيء) وها هما القصيدتـــان ..

مع الغربـــاء

« الى اللاجئين في معسكر البريج »

للشاعر هارون هاشم رشيد

أتت ليلى ، لوالدهـــا
وفي أحداقها ألـــمُ
وفي أحشائها نـــار
من الأشواق تضطـــرمُ
وقد غابت بعينيهـــا
طيوف هزها السقـــمُ
وقـــد ثـــار
الـــبريج
أســـى
فـــلا صوت ، ولا نغـــمُ

أتت
ليلى لوالدهـا
وقد أهوى به الهـرمُ
وقالت وهي من لهـف
بها الآلام تحتـدمُ

* * *

لمـاذا ...؟
نحن يا أبتِ ..؟
لماذا نحن أغرابُ ؟
أليس لنا بهذا الكـون
أصحابٌ ، وأحبـابُ
أليس لنا أخـلاءُ
أليس لنا أحبـاءُ
لمـاذا ...؟
نحن يا أبتِ ..؟
لماذا نحن أغرابُ .؟
يمر العام ، إثر العـام
يا أبتِ ... ، بـلا جـدوى
فلا أملَ ، ولا بشـرى
ولا نجوى ولا سـلوى
سوى الآلام والشجـنِ

سوى الأحزانِ والمحنِ
سوى صوت من الأقـــدار
يهتف دائمـــاً
وطـــني
لـــاذا ..؟
نحن يا أبتِ ..؟
لماذا نحن أغـــرابُ؟

* * *

لـــاذا ..؟
نحن في ســـقمٍ
وفي بؤس ، وفي فقـــر .
نظل نتيه ، جوابـــين
من قطر ، إلى قطـــرِ
أما كانت لنا أرض
بها الآمال تخضـــرّ؟
وفيها ترقص البشرى؟
ويشدو فوقها الطـــيرُ؟
أما كان لنا وطـــن..؟
يسبح باسمه الزمـــن.
لـــاذا ..؟
نحن يا أبتِ ..؟

لماذا نحن ، أغــرابُ ؟
أليست ...؟
أرضنا الخضــراء
ذات المنهل العــذبِ
وذات الحلم الحلــو
الذي أشرق بالحــبِ
لماذا ؟ نحن لا نــزرع
أحراراً بأيدينــا
ونأكل خــير موطننــا
ونعطيه ، ويعطينــا
لماذا ، نحن لا نسقيــه
من جهد ، ويسقينــا
لـــماذا ..؟
نحن يا أبت ..
لماذا نحن أغــرابُ ؟

* * *

لماذا نحن في الخيمــة
في الحر وفي الــبردِ ؟
ألا نرجع للبيــت
وللحقل ، وللمجــدِ
لماذا نحن في الألمِ ؟

وفي الجوع وفي السقمِ ؟
وفي البؤس وفي النقمِ
لمـــاذا ..؟
نحن يا أبتِ ؟
لماذا نحن أغـــراب ؟
سألتك
أمس .. عن أمـــي
التي ذهبت ولم ترجـــع
سألت ..
وخافقي يشكـــو
سألت ، ومقلتي تدمـــع
وأنت مغلغل في الصمت
لا تحكي ، ولا تسمـــع
ويمعن يا أبي صمتـــك
ولا ينفذ لي صوتـــك
فأصـــرخ ...
يـــا أبي قل لي
لماذا نحن أغـــرابٌ ؟
سألتـــك
منذ أيـــام
سألتك عن أخي أحمـــد
وكدت ، تزيح عن عيـــني

ذاك .. الخاطر الأسـود
وكدت تقول لي قد مـات
يا ليلى .. قد استشهد
ولكنك لم تفعـل ؟
لـماذا ..؟
نحن يا أبتِ
لماذا نحن أغـراب ؟

* * *

أتذكر يا أبي سـلوى
لقد أبصرتهـا أمسِ
تلج ، شريدة في الـدرب
في حزن ، وفي بـؤسِ
لقد بدلهـا السقم
مع الأيام .. يا أبتِ
فهذي غـيرها لا شك
هذي غير صاحبـتي
عيون فيضهـا ألمُ
وجسم كلـه سقمُ
لـماذا ..؟
نحن يا أبتِ ..؟
لماذا نحن أغـراب ؟

أبـــي ...
قـــل لي بحق الله .
هل نأتي إلى « يافـــا » ؟
فإن خيالها المحبـــوب
في عيني قد طافـــا
أندخلها أعـــزاء
برغم الدهر .. أشرافـــا ؟
أأدخل غرفتي .. قـــل لي
أأدخلها . بأحلامـــي ؟
وألقاها ، وتلقانـــي .
وتسمع وقع أقدامـــي
أأدخلها بهذا القلـــب
هذا المدنف الظامـــي

* * *

أبـــي ...
لو أن لي كالطـــير
أجنحة لتحملـــني
لطرت بلهفة رعنـــاء
من شوق .. إلى وطـــني
ولكني مـــن الأرض
تظل الأرض تجذبـــني

* * *

وترعش
دمعة حـــرى
وتدفق ، خلفها دمعـــة
وترعد صرخة ابنتـــه
وتطرق في الدجى سمعـــه

* * *

فيصرخ سوف نرجعه
سنرجع ذلك الوطنـــا
فلن نرضى لـــه بدلا
ولن نرضى له ثمنـــا

* * *

ولن يحتلنا جـــوع
ولن يرهقنا فقـــر
لنا أمل سيدفعنـــا
إذا ما لوح الثـــأر
وصبراً .. يا ابنتي صـــبرا
غداة غد ، لنا النصـــر

صيحة لاجيء

« في الذكرى العاشرة لتقسيم فلسطين »

بقلم نجيب الكيلاني

أخي في السفح .. في الصحراء .. أو في دربك المظلمْ
أخي يا حامل الآلام في وادي الأسى المفعم
أخي دفنوك في قبر من الأحزان لا يرحمْ
وقلبك لم يزل حيا يقاوم صولة العدمِ

أخي وشبابك الريّان قد حرموك مغنـــاهُ
وطيف ربيعك الفينان لم تبرحك ذكراهُ
ويافا .. والروابي الخضر والماضي ودنياهُ
وأحلام وآمال خبت في ظلمة الالم

وحيفا والنسيم الحلو والشطآن والنهرُ
وعذراء لها عينان يهفو منهما السحرُ
وأغنية مهوّمة ، سداها الحب والبشرُ
طواها عاصف الآثام في بحر من الظلمِ

اخي ومآذن سمقت . وأجراس وصلبانُ
وخلد مونق الأعطاف بالإجلال مزدانُ
حضارات وأمجاد ، وأعلام وفرسانُ
وأرض تنبت الأحرار والأخيار من قدمِ

أخي لا تبك عزتها ، ولكن ثر .. ولا تهجعْ
ومزق قيدك الموهوم واسحق يأسك المفزعْ
وهات المشعل الوضاء .. هات السيف والمدفع
فبالإصرار والإيمان نهزم صولة العدمِ

وفي السطور التالية سوف نقدم نماذج قليلة لشاعر من شعراء الإسلام المحدثين ، صاحب « ديوان مجد الاسلام » الأستاذ أحمد محرم ، شاعر نشأ في مصر ، وعاصر أحداثها الضخمة في أواخر القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين . وعلى الرغم من أنه لقي كثيراً من الإهمال المتعمد إلا أنه ظل حاملاً لرسالته ، مؤدياً لها على وجه طيب . لم يحل دون إتمامها ما لاقاه من فقر وحرمان في شيخوخته ، وما ابتلي به من إهمال في حياته ، وديوانه « مجد الاسلام » الذي لم يطبع قد أحدث ضجة عندما نشر بعضه في الصحف من سنوات ، وسماه بعضهم بالإلياذة الإسلامية ، وقد تعرض هذا الديوان للرسول وأيامه وغزواته ، ومفاخر أصحابه ونضالهم الرائع من أجل نشر الرسالة الخالدة رسالة الحب والسلام والحرية والإخاء . وإزاء ضيق المجال لا يسعنا إلا أن نقدم مقتطفات قليلة من شعره تناول فيها عديداً من الجوانب : اجتماعية وسياسية وخلقية وعاطفية .

يتحدث محرم عن الغنيّ الذي ليس له رداء سوى الكبرياء والأنانية والفحش فيقول :

موسر غره الغـنى   فارتضى الكبر ديدنا
تاه عجباً بما ابتنى   وازدهاه الذي اقتنى
ما رأيناه محسناً   ملكت كفه (أنـا)
كلما قيل ها هنا   هز عطفيه وانثـنى
لا إلى راغب دنا   ولا على ساغب حنـا
وهو في النكر والخنى   دائب قط ما ونى

ثم يسخر في قصيدة أخرى من المجتمع الذي انقلبت معاييره ، واضطربت مقاييسه ، فقدس المال واحتقر الكفايات الفكرية والعلمية ، وكانت في سخرية شاعرنا رنة أسى ، وحنق مرير أشرف به على مهاوي اليأس فيقول :

هيهات لا كتبي ولا أقلامي   تغني بني إذ أحم حمامي
هذي القصائد ما انتفعت بنظمها   فعلام أرجوها لنفع غلامي
المال أصبح خير شيء يقتنى   لا شيء يعدلـه لدى الأقوام

. . . . . .

لكنه يعود متحدثاً عن نظافة قلمه ، وحصافة مسلكه ، فيتحدث عن نبل رسالته الفكرية ، وجهاده الفني ، وينتهي إلى قولـه :

قلم من الروح الزكي يمده   ما شاء ربك من نطاف الكوثر

وكان شعره – رحمه الله – صدى للبيئات المختلفة التي تقلب بين ظهرانيها ، وترجماناً لأحاسيسه وأحاسيس شعبه ،

إنه هنا يتحدث عن الفلاح حديث إنصاف وتكريم ، ويرفع من منزلته ، مشيداً بدوره العظيم في بناء المجتمع ، وإقامة دعائم الحياة الجديدة ، بعون الله وقدرتـــه :

أنا الفـــلاح أسعى في سبيلي سعي مجتهـــدِ
مكاني في بـــني وطني مكان الروح في الجسدِ
على فأسي ومحـــراثي تقوم سعادة البلـــدِ
كنوز الأرض أخرجها بإذن الواحـــد الأحـــدِ
حياة الناس في الأرض وسر حياتها بيـــدي
أنا والنيـــل نحييهـــا حياة الخصب والرغـــد
توكـــلنـــا عـــلى الله وليّ العون والمـــددِ

وليس هذا بغريب على رجل عاش مع الشعب العربي مأساته . واختلط بفلاحيه ومثقفيه ، وارتبط بقضاياه وأخذ كل حياته مأخذ الجد ، واعتصم بالأخلاقية في شعره ، أو بمعنى آخر كان أديباً «ملتزماً» يعيش في ظل خطة متسقة ، وفي رواق عقيدة سمحاء :

إني امرؤٌ ماجد الأخلاق فاضلها ماعابني لعب يوماً ولا فندُ
سموت بالجد والصدق اللذين هما خدناي إياهما أبغي واعتمد

ويقـــول :

دعوا الشم الطوال ومن بناها حمى الأخلاق أمنع من حماها
وما بذرى المصانع من غنـــاء إذا الأخلاق لم ترفع ذراهـــا

وهذا الشاعر الجاد هو نفسه الشاعر الذي يتغنى بالطبيعة ، ويمجد جلالها ، ولكنه لا يرى في جمال الطبيعة إلا طريقاً إلى الله ، مبدع الكون وخالقه وكاسيه أثواب الجمال والروعة :

شاعر زارنا يحيي الجمالا ويناجيه ضاحكاً مختالا
الجمال الذي يرى الله فيه فيرى المجد عاليا والجلالا
ويرى الصنع عبقرياً بديعاً يخلب اللب صورة ومثالا

وتبلغ رقة الشاعر مداها حينما يتخيل الطبيعة في مأتم باك حزين من أجل زهرة جفت :

جفت الزهرة حزناً فجرى دمع الغدير
كيف لا يبكي لخطب حل بالروض النضير
هاجه البلبل لما ريع للخطب الكبير
بات محزوناً يوالي أنة القلب الكسير
والنسيم الرطب أمسى دونه حر الهجير
طلع الفجر عليها في أنين وزفير

. . . .

زهرة جفت فماتت في صبا الحسن المنير
موت ذي التاج المحلى فوق عرش أو سرير
ودولة دالت سراعا حكمة الله القدير

هذا التعاطف الإنساني الكبير ، وتلك الصلة الرائعة التي تشرق من قلب الشاعر وتشمل الوجود كله ، حتى تلك الزهرة

التي جفت ، كل هذا يلقي ضوءاً على خطة الشاعر ومسلكه الإنساني الرفيع ، ومدى تشربه لروح عقيدته السمحاء . إنه بذلك أحال الطبيعة الجامدة إلى حركة دافقة مليئة بالمشاعر والأحاسيس .

* * *

وينظر محرم إلى بلده الذي تقاسمته الأهواء ، ومزقته الحزبية ، وانحرف عن جادة الطريق طريق العقيدة والإيثار والحرية ، فيهتف قائلاً :

بلادي كيف أنت على العوادي ... وماذا ذقت من عنت الخطوبِ
بلادي هل صدقت الجد بعدي ... أم استغنيت بالأمل الكذوبِ
بلادي هل درجت على سبيلي ... وملت على المآرب والدروب ؟
أرى شعباً وأحزاباً غضابا ... لغير الله والوطن الغضوب
برئتُ من الكناية إن أقامت ... على تلك المآثم والذنوب
إمام المهتدين أفض علينا ... من النور المحجب في الغيوب
تركت الأمر مجتمعاً فأمسى ... كثير السبل مختلف الدروب
وكان الحق للأقوام دينا ... فبدل كل أواه منيب

لقد اتخذ الشعر الديني عند محرم موقفاً إيجابياً من الأحداث ، وشارك في علاج أمراض المجتمع ووضع يده على مواطن الداء فيه ، وهتف بالأمة الاسلامية أن تلتمس الشفاء في هديه ، وتفرق النور من فيضه عليها .

هو الإسلام ما للنـــاس واق سواه فأين يذهب من تعامى
يزود عن الضعيف فيتقيه من الأقــوام أنفذهم سهاما
يلوذ به إذا ما خاف ضيماً فينصره ويمنع أن يضامـــا
كفى بكتابكم يـــا قوم طبا لمن يشكو مـــن الأمم السقاما
كتاب يمـــلأ الدنيا حيـــاة وينشر في جوانبهـــا السلاما

ويترنم أحمد محرم في حسرة وألم ناعياً على هؤلاء الشباب الذين انفلتوا من الدين ، ورموه بالجمود والرجعية ، وتباهوا بإلحادهم وزندقتهم ، وزعموا أننا في عصر العلم والمدنية ، فلا سبيل إلى الإيمان بالغيبيات والرسالات السماوية في زعمهم :

ذهب العصر الذي شيبنا وأتى عصر الشباب الملحدين
عيرونا أن عبدنا ربنـــا وحفظنا عهده في الحافظين
نسخ الأخلاق في شرعتهم أنها من ترهات الجامدين
إن نقل : دين ، يقولوا فتنة هاجها في مصر بعض المفسدين
فسد الأمر فهل من مصلح أصلحوه يا شباب المسلمين

ويقول في مكان آخـــر :

يا قومنا هل تعرفون كتابكم أم ليس فيكم مؤمن يتذكرُ
عذرا ، فقد عظم البلاء فهاجني حتى لأحسب مهجتي تتفجرُ
وكأن في كبدي وبين جوانحي ناراً مؤججة تجيش وتهدر
إن يجهلوه فإنه الســـر الـــذي يحيي النفوس إذا تموت وتقبر
وهو الحمى المأمول يعصمنا إذا جرت الأمور بما نخاف ونحذر

ماذا نخاف وكل حرف معقل ولمن ندين وكل سطر عسكر
هو قوة الإسلام ما من قوة ترمى بها إلا ترد وتقهر

ويتملى محرم بعينيه كيف فقد الشعب رائده ، وكيف فترت دعوة الجهاد وعم الفساد ، وسادت الفوضى وساد الهوى ، فيصرخ :

قم يا رسول الله وانظر هل ترى إلا شعوباً غاب عنها المرشدُ
نامت سيوفك بعد طول سهادها فاستيقظ الغاوي وهب المفسد
عم الفساد فلا صلاح يرتجى للعالمين ولا فلاح ينشرُ
الأمر فوضى والحياة ذميمة والشر لا يفنى ولا هو ينفدُ
دنيا الهوى ترمي الشعوب من الأذى ومن العذاب بعاصف لا يركد
أسفي على الإسلام هان عرينه وعدا عليه الفاتك المستأسدُ

ويحاول أحمد محرم أن يقارن الصورة المثالية التي استمدها من تاريخ الإسلام وأمجاده ورجاله بالصورة الراهنة فيهوله البون الشاسع بينهما ، وتصدمه الحقيقة المرة ، فيطلق كلمته الصاخبة في وجه الملوك الذين يتحكمون في مصير شعب مصر :

كذب الملوك ومن يحاول عندهم شرفاً ويزعم انهم شرفاءُ
رتب وألقاب تغر وما بهـا فخر لمحرزها ولا استعلاءُ
آناً تباع وتارة هي خدعـة تغنى بشر سعاتها الأمـراء
ذنب الملوك رمي الشعوب بنكبة جلى تنوء بحملها الغبراء
لا المجد مجد بعد ما عبثت به أيدي الملوك ولا السناء سناء
بالوا على الشرف الصميم وأحدثوا ما شاءت الأوهام والأهواء

حقاً ، ان الشعر كما قال محرم : هو القوة التي تغزو نفسك العاتية [1] فتصهرها ، وتنتصر عليها ، وترمي مغالق قلبك بمفاتيحها النارية ، فتغضها وتذيبها ، ثم تدخل متغلغلة إلى موضع الطاعة فتحتله وتذهب إلى مكان الإرادة فتعسكر فيه ، وتملكه وأنت لا تقدر على شيء ولا تستطيع دفاعاً .

في هذه القصيدة قصيدة « شوق » للاستاذ الوكيل ، نرى لدى الشاعر اتجاهاً متميزاً ، مثل هذا الاتجاه يتفق تمام الاتفاق مع ما يتصف به المسلم خاصة والشرقي عامة ، من تقديس للأسرة ، واستمساك بتقاليدها ، وتشبث بفضائلها ، فهو بعيد عن فرخيه — طفليه — وعن إلفه — زوجه — وهذا البعد يثير في قلبه الشوق والحنين ، وينسيه تعاقب الأيام والليالي ، وهو لا يرى في الكون — على رحابته واتساع مداه — ما يغنيه عن بيته وأولاده وزوجه ، وهكذا المسلم الحق لا يرى بيته سجناً يحد من نزواته وعبثه ، وإنما هو حصنه ، ومأوى راحته وإسعاده ، فالأسرة المسلمة كيان واحد ، مرتبط الأواصر والعرى ، لا تعرف المروق والتفسخ واللهو الحرام ..

---

(١) شاعر العروبة والاسلام ص ٦٦ .

« شوق »

« في الاسكندرية وقد طال النأي أياما »

هنا في الصبح والظهر   وفي الموهن والفجرِ
يفوت اليوم .. لا أعلـ   ـم هل فات ولا أدري
فقد طال بي الشوق   إلى وكري في مصرِ
إلى وكري وهل في الكو   ن ما يغني عن الوكرِ
إلى فرخي والإلف الـ   ـذي أخصب لي عمري
ومن أوحـى من الأنغا   م أسماها إلى شعري
ومَنْ مِنْ شـأنه شأني   ومن من أمره أمـري
ومن يسلي عن الدنيا   بوجه ضاحك نـضر
ولا أنفك أسمعه   ويسمعني مـن الشعرِ
كـلانا صاحب بر   وهـل في الكون كالبر

اما القصيدة الثانية « شمس الحقيقة » للشاعر نفسه ، فهي لحن صوفي مشرق ، يحاول الشاعر فيه أن يحلق إلى آفاق الروح بنضارتها وجلالها ويحاول أن يتخلص من أوشاب الأرض وترابها وأدرانها ويفتح قلبه للتوبة والعودة إلى رحاب الله ، إن انغماس البشر في المادية الصرفة ، وانصرافهم عن عوالم الروح ، بذر في نفوسهم الجمود والوحشية ووسم تصرفاتهم بمزيد من الحيوانية ، وأورثهم الصراع المجحف وأدى بهم إلى كوارث متلاحقة يأخذ بعضها برقاب بعض ، وصوت هذا الشاعر واحد من أصوات عديدة تنطلق في الظلمات المدلهمة

باحثة عن شمس الحقيقة ، طالبة النور الذي ينير الطريق ، ويبدد سحب الحيرة والقلق ..

اما في قصيدته «عابد الشمس» فهو يؤكد قدرة الله وتفرده بالإبداع الأمثل ، فإذا كان في الكون جمال فالشكر لواهب هذا الجمال ، ولا شك أن خالق الشمس أولى بالعبادة من الشمس نفسها ، ولا يصح أن تكون الطبيعة برغم جمالها وروعتها إلهاً يعبد ، فمبدع الكون أحرى بالعبادة والتقديس .

«شمس الحقيقة»

«أعدت لتلقى في ندوة صوفية»

اسقياني واترعا أكوابي ودعاني فذاك يوم متابي
اسقياني فإن سكرت فزيدوا إن صحوي بأن تزيدوا شرابي
كل كاس كأنما نحتوها من قلوب العبّاد في المحراب
أحتسي راحتيها وأنسى لديها نسباً قام لي بهذا التراب
وأراني أرف في الأفق الأعلى رفيف الورود غب السحاب
وأرى الشمس خير مالاحت الشمـ ـس تبث الضياء في أعصابي
ما هدت مقلتي إلى سنن الحـ ـق ولكن هدت عصى رغابي

* * *

إيه يا شمس نحن عشاقك الهيـ ـم فبيني ولو وراء نقاب
هل سمعت القصيد إلاّ نسيباً في سناك المطهر المستطاب

غزلا للهوى به ومضات مثل ومض الضحى على الأعشاب
يقطع الليل في رجاوة لقيا ك وتدعو بأبعد الأسباب
وكأن السماء تصغي الى النجو ى، وصمت النجوم جد عجاب
وكأن الصبا تراوح منهـا خفقات ملأن افق الروابي
ما لهذا الظلام يفهم نجوا ي ويبدو كأنه متغاب.

* * *

اسقياني فإن ظفرت بسر فسكوتي عن الجواب جوابي
التمست الرضا فلا بأس أن أل قاه بين السهود والأوصاب
ورجوت الذي تذوق به رو حي سلافاً تسمو على الأعناب
ونشدت الهوى يظلل أحلا مي فيأسو براحة الحب ما بي

« عابد الشمس »

للعوضي الوكيل

ايها العابد للشمس التي لم تزل تحنو علينا بالسنا
نحن عشاق لها لكننا ما اتخذناها إلهاً بينا
إنما نعبد من أبدعها ولديه وحده نبغي المنى
ولنا شعر وترنيم له وتهاليل تسامت في الدنى

أيها العابد في شط النهر انظر الشمس جميعاً والقمرْ
وانظر الروضات فيها فتنة من ظلال وغصون وزهر

وانظر الأنجم تبدو زينة وهدايات بداة وحضر
وانظر الانسان أمسى خلقه عجب الكون ومرتاد الفكر
ربنا الرحمن والكون له أثر يا حبذا هذا الاثر

وفي لهفة عارمة وقلق زائد ، وخطوات متعثرة ، في عالم الحروب والمؤامرات يرفع الشاعر « نجا » يديه الى السماء ويهتف من أعماقه ، طالباً مزيداً من النور معبراً عن مشاعر الملايين التي أرهقها الحرمان والعذاب ، فاتجهت بقلوبها إلى الله باحثة عن ظلاله الوارفة :

« مزيداً من النور »

لابراهيم محمد نجا

مزيداً من النور يا خالقي فقد جن ليلي بفجر الضياء
مزيداً من النور يهدي خطاي إلى حيث نبع الهدى والصفاء
مزيداً من النور في ظلمتي ليمحو فجري ظلام المساء
مزيداً من النور يسعد قلبي بما يسعد النبع ركب الظماء
ظمئت إليه بروحي التي ترى النور نبعاً شجي العطاء
مزيداً من النور ، فالنور حب وبالحب يشرق ليل الخفاء
وبالحب ألقى البعيد القريب وما أروع الوصل يوم اللقاء
وبالحب أشعر أني فنيت فنلت الخلود بهذا الفناء
أنا عاشق النور مثل الفراش وفي النور ألقى خلود البقاء .

والاسلام لا يتجاهل المشاعر الذاتية ، ولا يطمسها أو يحرّمها بل يعطيها حقها ، فهذا شاعر سجين طال بعاده عن قريته ، فيحن اليها حنيناً موضوعياً – ان صح هذا التعبير – ويمزج مشاعره الذاتية الدامعة بقريته وأهلها الفلاحين ونسق الحياة فيها ويفتح في قصيدته آفاقاً انسانية رحبة فيقول في قصيدته « أغاني الغربـــاء »[١]

قد طال ترحالي فهل لمسافر يوماً مآبْ
أترى أعود لقريتي وتعود أحلام الشبابْ ؟
وأرى أبي والحاملين فؤوسهم عبر الشعابْ
العائدين من الحقول يلفهم ضافي السرابْ
الكادحـــين ..

هم – يا حبيبة – أهلنا في ظلهم ذقنا الحياة
حيث الأوز جوارنا يخطو وتصطرع الشياهْ
كل يخط على الثرى حقلاً بأوسطه قناهْ
يمضي على سنن الجدود مقلداً فيها أباه
يا للحنين

(١) القصيدة من شعر المؤلف .

هم يا حبيبة ــ صانعو التاريخ آمال الغدِ
قنعوا بما دون القليل قناعة لم توجدِ
أعطوا وما أخذوا سوى ذاك القديد الأسودِ
الله يعلم أنهم سر الكفاح السرمدي
الصابـــرون

أترى أعود إليك يا سمراء نمرحُ من جديد
مترنمين بلحننا الهاني وماضينا السعيد
ونعود للكأس الحلال ونشوة الحب الغريد
ونعود ننعم بالجمال الحق في رحب الوجود
هل تضرعين ؟

الفهرست

للمؤلف

- الطريق الطويل (رواية) — جائزة وزارة التربية — طبعة ثالثة
- اليوم الموعود » — » المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب — طبعة ثانية
- في الظلام » » وزارة التربيــة
- طلائع الفجر »
- ليل الخطايا »
- رأس الشيطان »
- الربيع العاصف »
- عذراء القرية »

—

- موعدنا غداً } قصص قصيرة
- —
- دموع الأمير

العالم الضيق

● المجتمع المريض	جائزة وزارة التّربية
● إقبال الشاعر الثائر	» » »
● شوقي في ركب الخالدين	» » »
● الطريق إلى اتحاد إسلامي	
● الإسلامية والمذاهب الأدبية	

—

● على أسوار دمشق (مسرحية)

—

● أغاني الغرباء ⎫
● نحو العــــلا ⎭ شعر